من حضارة الاسلام

٤

من إشارات العلوم في القرآن الكريم

تأليف

عبد العزيز سيد الأهل

دار النهضة الحديثة

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
بيروت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م

من اشارات العلوم

في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

باسمه سبحانه يكون البدء والاهتداء ، وبفضله ـ جل وعلا ـ يكون التوفيق والاعتلاء . وبالصلاة والسلام على نبيه المصطفى يقرب الوصول ويدنو المأمول .

وبعد فهذه نظرات مختلفة في شؤون من العلم المجمل أشار اليها القرآن، وليس المراد منها الإحاطة ، إذ هي ليست من طاقة البشر ، ولا هي تفاصيل ما جاءت به العلوم ، فليس هذا شأن القرآن ، ولكن فيه الاشارة المجملة الى ما لا يمكن أن يختلف معه من التفاصيل ، إذ القرآن كلام الله وعلمه ، وكل ما أثبتته التجارب وبلغته العقول لا يعدو ان يكون نقطة من سحاب ووشلا من بحار .

وأرجو أن تكون هذه النظرات بداية صغيرة في عمل كبير يجمع في الطبعات ، القادمة ـ بمشيئة الله ـ أكثر ما يرتمي عليه العقل والنظر ، كما أرجو أن يكون نافذة الى أبواب يلجها أصحاب الفكر والنظر بأوسع مما فكرت وأشمل مما نظرت . والله من وراء القصد وهو هادي السبيل .

القاهرة في محرم ١٣٩٢ — عبد العزيز سيد الاهل

يناير ١٩٧٢ م — عضو المجلس الاعلى للشئون الاسلامية

ديوان الفضائل

حصائل الكلام – فضيلة العمل
الشهوة والغضب ـ النفس الناطقة
وسائل التمييز .

حصائل الكلام

حصائل الكلام في الفضائل ـعندنا نحن العربـ تؤلف ديواناً ضخماً لا مثيل له في الضخامة عند أمة من الامم ، لا في عـــدد صفحاته ولا في مضارب أمثاله ، لان هذا الديوان ظل يكتب فوق ألف عام ، فحصائله مهما تناثرت وقلت فانها تكون أعداداً هائلة من الأمثلة والمضارب لمختلف الفضائل والعادات ، وهذه الفضائل تتحدث فيما كتبوه ودونوه من شتى الاتجاهات .

فمن كتُب لم يكن من شأنها غير تعداد فضـــائل الفطرة وضرب الامثال لها في سرد مكرر معاد من غير أن تؤلف هذه الكتب بين الاشكال أو تجمع بين الفصائل والأجناس . ومن هذا النوع كتب لا حصر لها

من القديم والحديث ينزوي بعضها مخطوطاً دفيناً لأن أحداً من الباحثين لم ير فضلاً في نشره ولا نفعاً في اظهاره ، وينتشر بعضها رخيصاً رديئاً لا يدعو الى اقبال ولا يبعث على امتثال .

وكتب أخرى قريبة من تلك قد قصرت بحثها على فضائل النفسين الشهوانية والغضبية فمسّت بعض الفكر وبعض الحق دون أن تصبر أو توغل ، وقد سهل أن يعرف أن هذه وتلك جميعاً كان مُشاكلاً لعمل الوعاظ الذين تخصصوا لحث العامة على تعديل الطباع والاستزادة من الخير البادية معرفته للسلائق والمشاعر .

ولكن هناك صنفاً آخر من كتب الاخلاق - عندنا كذلك نحن العرب - قد أحصى مؤلفوها فضائل النفس ثم جاوزوها صاعدين الى فضائل النفس الناطقة موضحين كالفلاسفة وأهل الفكر ان الانسان لا يكمل الا بها .

وكان حقاً ما رآه هؤلاء ، فأن النفس الناطقة هي التي ميزت الانسان عما اشترك فيه مع البهائم في الشهوة والغضب ، وقد حق لهؤلاء بما ذهبوا اليه أن يكونوا أئمة في التفكير وهداة أعلاماً في المعرفة والتقدير .

وربما كان من الحق أيضاً أن يضاف الى هذا الصنف الأخير ما اتصفت به بعض الكلمات من البلاغة وبعض الالسنة من الفصاحة وبعض الأيدي من الكتابة وحسن الخط والرسم وكل ما ارتفع وسما من دواوين الفن والحماسة ، تلك التي صارت ذات أسواق رائجة في ميادين الدراسة اللغوية في المدارس والجامعات والمنتديات ، وذلك لان البلاغة والفصاحة وكل

صفات الإبانة والتوضيح انما هي من فضائل العقل الانساني بأداة اليد واللسان ولا يكمل بغيرها انسان .

فضيلة العمل

ولا مراء في أن هذه الحصائل من الكلام مع تفاوتها في درجات الفهم والبحث ومدارك الغور والعمق لم تكن الا تعبيراً سطحياً حيناً ودقيقاً حيناً آخر عن فضائل عملية عند العرب ، كان أدناها في الجاهلية حين كان كله شهوة وغضباً ،وصار أعلاها في الاسلام حين صار فكراً وسيادة ووحدة واستعلاء، ثم كان أعلى القمم حين انكبت الأمة على اذكاء العقول واشعال الأخيلة واكتساب العلوم .

فديوان الفضائل العربية لم يظل مقصوراً على تلك الالفاظ والمصطلحات التي نقرؤها ونرويها ، ولكنه روى معها حقائق من الطبع والخلق والكسب والسياسة، وكان أرفعها السعي لتحصيل العلوم والعمل بها في قمة الوجود .

نعم ، لم يقف العرب عند حصائل الالفاظ والمصطلحات ، بل عاشوا حياة العلم ذاتها، وبذلوا كل الاهتمام الى اللباب دون القشر ، واشتغلوا بالجوهر دون العرض ، وزكوا أنفسهم الناطقة بالمحمود الذي يزداد حمداً كلما زكا ونما ، والذي حث الله سبحانه عليه في قوله تعالى (قد أفلح من زكاها) وفي قوله تعالى (قد أفلح من تزكى) ولولا ذلك لكانت حصائل فضائلهم كلاماً معاداً تمجه النفوس أو سخرية ممقوتة حين تكذبها سود الايام وضواري الأحداث .

ولقد اعتنقت الاخلاق الاسلامية مبادىء الاسلام العملية في قاعدة أصيلة لفضل العمل على القول ، تلك القاعدة المركوزة في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لمتقولون ما لا تفعـلون . كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » .

كما أنه قد بقي للامة العربية على الأبد مع تباعد أقطارها واختلاف أحوالها وتفرق آمالها ديوان من الفضائل، وهو ثابت القاعدة شاهق البناء ، وهو الذي لم يزل يشدها الى طباعها من الاستعداد والتأهب وادخار القوة وانتظام السلوك .

الشهوة والغضب

ومما لا مرية فيه أن الفضائل التي تهذب النفس الشهوانيـة والأخرى الغضبية من الشجاعة والعفو مثلاً انما هي ركائز لأمور لا تتغير ضوابطها الا قليلاً في اختلاف الأحوال والأيام .

ومن حق العرب في الجاهلية أن يكون لهم ديوان هذه الفضائل برمته، لأن آلات الشجاعة ومباذل الجود وأخلاق الفتوة قد اجتمعت لديهم حتى قبل أن يوحدهم الاسلام ويجمعهم على الطريق .

وكأنما هو الديوان الذي استطاعوا أن يرتجلوه بلا روية، واقتدروا أن يسجلوه بلا تردد، وقد تساوى في كتابة سطوره البدوى منهم والحضرى، ومن كان له منهم تهذيب مطبوع ، ومن كان له منهم قدر مكسوب .

ولست أدعى أن العرب بديوانهم في أخلاق الحماسة سلموا من العيوب أو نجوا من الاخطاء ، فقد تجاوزت بهم الشجاعة حدود التهور ، وجاوز

السخاء حدود الاسراف . وهذا الاحتراس لئلا يكون فخراً بلا حساب أو حساباً بلا رقيب .

أما حينما جاء الاسلام ونفحت أخلاق الرسول فقد تسامى بالعرب الى فضائل النفس الناطقة ، اذ ما لم ترسم لهذه النفس فضائلها المميزة فان الانسان يستوى عند الغضب بالنمر الجائع وعند الزهد بالسبع المريض ، ولا فرق أحياناً بين الفضائل والمشاعر الا من تسمية الانسان لها حمية وزهداً ، وشعور الحيوان بأنها مرض وجوع .

وليس معنى ذلك أننا نحث أن يهمل الفرد أو تهمل الأمة ما قدسته من حسن الطباع وأخلاق الفتوة ، بل اننا نحث أن تكون العادات التي تتهذب بها النفوس الشهوانية والغضبية في أول فصول التربية العامة للافراد والجماعات ، وإنما هي أقل ما تفعله التربية اذا لم تنتقل بالناس الى حقائق العقول وبحار العلوم .

فاذا بدا لأحد أن حلقات الفضائل لا تدور الا مفرغة أبداً حول ما قيل في الفضائل الشهوانية والغضبية دون فضائل النفس الناطقة فان ذلك الاتجاه يبعده عن حقائق الفضائل التي يمتاز بها الانسان .

وعائشة الصديقة رضى الله عنها تنبه الى ذلك في اجابتها حين سئلت عن خلق ـ النبي صلى الله عليه وسلم ـ كيف كان؟ فقالت: كان خلقه القرآن، فقد أرادت عائشة به ـ ولا ريب ـ خلق النفس الناطقة التي يمتاز بها القرآن لانه حكم وتنظيم ، ورأي وحكمة ، وسياسة وتدبير .

النفس الناطقة

وهكذا يتضح أن أعلى المراتب في ديوان الفضائل بالنسبة للانسان انما هي مراتب النفس الناطقة التي لا يرقى اليها الا باستخدام البصائر واكتساب العلوم ، فهي فضيلتها ، وبحسب طلب الانسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون الفضل والظهور ، وتتصاعد مراتب هذه الفضائل علواً بعدم الرضى باليسير من المعارف دون كثيرها والاكتفاء بأوساط العلوم وأوائلها دون لجتها وأواخرها .

وقد تمثلت فضائل النفس الناطقة ـ عند العرب ـ في نهمتهم البالغة الى علوم القدماء ، ثم ارتياضهم بالعلوم العقلية والتجريبية كالمنطق والكيمياء مما قدر لهم أن يصلوا اليه ، فشرفت بذلك حياتهم الانسانية اذ تحكموا بالعقل والعلم في معايير القوى الغضبية والشهوانية ، وهان عليهم أن يرسلوها أو يقمعوها ، وأن يطلقوها ضارية أو يذللوها .

وبالعقل والعلم أوضح الاسلام محاسن الأخلاق وعيوبها ، فلم يعد الكمال مشتبهاً بالنقص ولا الحسن مشتبهاً بالردىء ، وقد جعل الاسلام في القرآن والحديث يكرر التوضيح والتعريف ، ويرتاض النفوس بالدليل والعلم لتدرك حقائق الامور وتشرف البصائر على هيئات الموجودات فيتمكن الاعتدال من كل أنواع النفوس ، وتنتظم فيها الصور والاشكال.

ولن يستغني الانسان بشجاعته أو جوده وزهده أو استمتاعه ، بل كل ذلك لا يغني عن استخدام العقول واكتساب العلوم والترقي في الفهم ودرجات المعرفة . ولم تتفاوت قيم الافراد والجماعات الا بما كان للقوة

الناطقة من قوة وتأثير ، فهي وحدها العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق فيما يختص بالانسان .

وقديماً أوصى أبو عثمان الجاحظ بهذه القوة في مؤلفه « تهذيب الأخلاق » فقال : ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والامعان فيها أو تعذر عليه ذلك فليبذل جهده من تدقيق الفكر ومجاهدة النفس وتمثيل ما بين عادته القبيحة والجميلة وينظر أيها أجدى عليه وأنفع له وأيها أحمد عاقبة وأبقى على الايام .

وقول الجاحظ هذا يستبين منه الى أي درجة تتحكم النفس الناطقة بفضائلها في غيرها من قوى الشهوة والغضب وتسيطر عليها وتستولي على قيادها .

وسائل التمييز

واكتساب العلوم والآداب ما لم يكفّ عن الرذائل ويقهر جشع البطن وحمق الغضب ، وما لم يكسب صاحبه المعاش والمروءة ، فانه يرتد خادماً للرذائل وصانعاً للمخابث وفاعلاً في التخريب والتدمير .

ولقد استقر في حقائق الخير أن المعارف والعلوم خيرات تحصل للانسان بأداته وسعيه ، فتتحقق له آمال من أجلها خلق ، ولاجلها يحكم ويسيطر ، فاذا كسل عنها او انصرف الى المدمر منها لم تتحقق له السعادة ولم يكتب سعيه في ديوان الخيرات .

وحتى تستقيم الأمور الارادية التي تتعلق بها قوة الفكر والتمييز وجب أن تصان أقدار العلم وتقصد لذاتها دون أن يقدر العلم بموضع

يكون فيه، أو رجل بذاته يحمله، حتى لا ينحط قدر العلم أو يهون بهوان الأمكنة والرجال .

ولقد كان لخلفاء المسلمين في هذا التمييز ووسائله أي ذراع وأي باع ، وربما بقي ماثلاً في الأذهان ما كان يفعله عمر بن عبد العزيز عندما كان يشكل عليه أمر أو يخفى عليه علم ، فقد كان يرسل الى علماء زمانه الذين يحجبهم التواضع ويقصيهم الانطواء ، لأن بصيرته لم تر حقائق النصح والعلم الا عند هؤلاء، دون الطبول الجوفاء وأهل الطلب والرياء .

من كل ذلك يتضح أن أعمال الفكر وتحصيل العلوم والتأثير في الحياة بالعقول والعلوم ، انما هو التحقق بالانسانية اذ هي وحدها النفس الناطقة ، وهي وحدها القوة العاقلة ، وبها صار الانسان انساناً، وبغيرها لا تكتمل فضائل الذات ولا تزكو النفحات .

فمن أراد ان يقرأ ديوان الفضائل التي يمتاز بها الانسان فليذهب وراء العقول والاقوال والآثار والأعمال ، أكثر مما يذهب وراء الحماسة والفتوة والشجاعة والجود والعفو والوفاء . ولقد كثرت في هذه الاخلاق المتعلقة بالشهوة والغضب أقوال التمجيد والتقليد ، أما فضائل العقول فانها أحق بالقول من كل مقول .

السَّيرِ وَالنَّظَرْ

المشاهدة والتجريب ـ النظر والحساب
مسايرة القرآن ـ القلم والعالم
التقصير والانجاز

المشاهدة والتجريب

يحفل القرآن الكريم بما يستثير الهمم والعقول الى السير والنظر في الكون أرضه وسمائه، أما بالسير فليجتمع للانسان العلم الحسي والتجريبي، وأما بالنظر فلكي يجتمع له العلم النظري العقلي، وكلاهما يعينانه على تدّبر صنع الله الذي يبعث على معرفته والايمان به. ومهما يكن هدف القرآن والدين العبرة والاتعاظ فان هذا الهدف لا يكون الا بعد ما يسبقه من أوائل البحث والتدقيق والتفصيل.

ولما كان الامر بالسير والمشي والبحث والتنقيب لا يكون الا بالحسّ لكل ما يقع قريباً من المشاعر الحسية للانسان، وكانت الارض كلها ممدودة بين يديه ملاصقة له، فقد جعل القرآن يحث بني آدم جميعاً، وجيلاً

منهم بعد جيل، على السير فيها ورؤية ما عليها من جماد و نبات و حيوان، وما فيها من آبار ومياه وسطوح وأجواف ، وما يغمرها من ضوء وظلام وحر وبرد ونسائم وأعاصير ، وما عبرها من أمم وقرون ، وما ترك الماضون وراءهم من صنائع وآثار .

وقد دعا القرآن الناس جميعاً الى الاسترسال في البحث ليعلموا كيف بدأ الله الخلق، فقال في سورة العنكبوت «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » ، ودعاهم أن يقدّروا الانتقال بين الارجاء، واختلاف موازين السير على البر والبحر، والاحتيال للأمرين، والتكيّف لهما بالمعرفة والحساب، فقال في سورة يونس : «وهو الذي يسيركم في البر والبحر» وقال في سورة سبأ « وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين » .

دعا القرآن الى ذلك كله والى أكثر منه بما لا يحصى ، ثم دعا في اثنائه الى معرفة الأسباب والأوساط والنتائج حتى يستقر في النفوس والعقول أن هذا الخلق القريب الداني من الانسان ، والذي هو يرتجل عليه حياته ارتجالاً في سهولة ويسْر لم يخلق عبثاً، ولم يؤلَّف بغير قوانين رابطة وقواعد قائمة، وأن ارتباط أجزائه في كلّ ، واحتواء اشلائه في اناء ، انما صدَر عن علم وصُوّر عن حكمة تبعث دهشة الشاهد السائر وتسكن حيرة المفكر الحائر .

واقترن أمر السير في مائدة القرآن بالنظر ، لان السير العابر وحده على الارض لا يفيد الانسان غير علم قليل وعبرة ضئيلة، ومن ثم دعا القرآن الى الأمرين فقال سبحانه : « أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان

عاقبة الذين من قبلهم » قالها في يوسف، وقال أشباهها في الروم وفاطر وغافر وآل عمران والنحل والنمل والعنكبوت . ودعا القرآن الى أن يكون السير سير عقول وقلوب ، لا سير أرجل وأقدام ، فقال في سورة الحجر : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » .

ولا تمكن معرفة عاقبة الذين مضوا الا بالبحث عن تاريخهم وتقليب أحوالهم ورؤية آثارهم ، ويدخل تحت ذلك الأمر بعلوم وفنون وتجهيزات لا تحصى عدداً تحتاج الى عقول وتشتاق الى جهود .

ولم تكن آداب المشي التي فرضها القرآن الا ليكون المشي في الارض ناهياً عن الكبر فيها والعبث بها ، وليكون سعياً للرزق والمعرفة والجد والاتعاظ ، وفي ذلك يقول القرآن في وصية لقمان لابنه « واقصد في مشيك » ويقول « ولا تمش في الارض مرحاً » ثم يقول « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ويقول « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » .

النظر والحساب

ولم يقتصر القرآن على أمر الانسان بالسير في الأرض والنظر فيها حساً وعقلاً وفي حدود من الجد والأدب كما رأينا ، ولكنه أمر بالنظر العقلي في السموات القريب منها والبعيد ، وفي الاحوال التي نراها بالعين أو نرصدها ، والمظاهر التي تتغير عليها ، بل أمر بالنظر في كيفية بنائها ، وإحكام الابعاد والصلات بينها ، والتماع أضواء الكواكب والنجوم فيها ، بل وكل ما فيها ان أمكن للعقل أن يراه .

والتزم القرآن الحكيم ـ حين وجّـــه الأمر الى العلم بالسموات ـ كلمة النظر مفردة ، ولم يقرنها بكلمة السير أو المشي ، وذلـــك لبعد السموات السحيق ، ولأنه لا بـــد للعقل والتفكير والحساب أن تسبق الحصول على حقائقها ، وهو غير ما أمر به سبحـــانه في الارض إذ أمر بالسير ثم بالنظر ، فسبق في الأرض الأمر بالعلم الحسي التجريبي ، أما في السموات فسبق العلم العقلي ، بل انفرد .

ومما جاء به القرآن في ذلك قوله في سورة الأعراف « أفلم ينظروا في ملكوت السموات والارض » وقوله في سورة ق « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » وقوله في سورة يونس « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .

وفي كل هذه الآيات حث سبحانه على العلم العقلي بمجموع الملكوت من السموات والأرض ، ثم على النظر في كيفية بنـــاء السماء والاضاءة المرسلة منها ، واحكام طبقاتها وفعل جاذبياتها ، لان الكيفية في سورة ق منصبة على البنيان والزينة والاحكام » ثم جاء الامر في سورة يونس بالنظر بما في السموات والارض جميعاً .

والعلوم العقلية قد رافقتها في كل العصور البشرية علوم تجريبيـة وتطبيقية بنسبة تتفق مع تطور الانسان وعقله . وقـد يسبق أحدهما ويتأخر الثاني ، فقد يسبق التجريب الحسي معرفة الحقيقة، وقد تسبق معرفتها التجربة الحسية . والنتيجة واحدة حين يتأخر أحدهما أو يتقدم في ادراكها .

ولقد كان من الحتم أن تتطابق مطاوعة الانسان لحقيقة القرآن ومسايرته لما يرسم في هذا الترتيب، فما كان قريباً من الانسان سبقت التجربة الحسية، وما كان بعيداً سبق الحدس الظني والحساب العقلي .

وفي الحالتين كلتيهما يبحث العقل عن طمأنينته ليسكن اليها، وتبحث النفس فيما تهتدي اليه التماساً للعظة والاعتبار .

مسايرة القرآن

واذا كان العقل البشري اليوم ــ بما حصل عليه من القوى الكامنة في الارض القريبة منه والملاصقة له ــ قد بلغ مرحلة يحقق فيها بالحساب والتجارب الحسية علما فيه حقائق عن طبقات الارض وما تحتويه ، وفيه بلوغ الى الكواكب ومعرفة ما تشتمل عليه ، ثم معرفة ما بيننا وبينها من أبعاد وصلات،وما يقع بيننا وبينها من غلافات وحواجز وطبقات ، فان هذا العقل البشري قد ساير أوامر القرآن ورسومه ، بل حقق ما دعا اليه من السير والنظر في الارض والسماء ، وكأن الانسان ينفذ لفظ ما أشار اليه القرآن .

بل لعل العلم النبوي كان يحيط بذلك ، ولعل خروج قوى الارض الكامنة ــ والذي عدّ في الحديث النبوي من اشراط الساعة التي لم يعرف ميعادها بعد ــ لعل خروج هذه القوى والتنبىء عنها في الحديث بقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « فعند ذلك تقيء الارض أفلاذ كبدها » كان اشارة الى ما أخرجه العقل البشري بالتجريب والحدس والظن والحساب من أنواع الوقود كافة لاحداث ما صار .

والشريف الرضى في المجازات النبوية يقول في هذا الحديث : هو وصف الارض بالمبالغة في اخراج كنوزها حتى لا يخفى منها خافية ولا يبقى باقية .

وكان هذا الوصف من الشريف الرضى دون أن يعرف حقول الزيت وقوى الذرة ووسائل الوقود الاخيرة وطاقات الاحتراق ، ولكنه أدرك وصدق أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ينبىء بمجمل من الأمر ستكون له تفاصيل .

وليست أشراط الساعة بالامور التي تكون بين يدي القيامة وحسب ، بل أشراطها كل تغير جارف في أنظمتها وموازينها واخراج مخبآتها واستنفاد قواها ، مهما كان بعيداً عن القيامة ، ورسول الله نفسه قد بُعثَ في نسم الساعة ، وقد قال – صلى الله عليه وسلم – «بعثت في نسم الساعة ان كادت لتسبقني »

القلم والعالِم

وقد اهتم القرآن بأمرين هما مقاليد العلم والحصول على الحقائق ، وهذان الأمران هما القلم والباحث الدائب على الحقائق حتي تصير له صفة تميزه فيسمى عالماً .

أما القلم ويتبعه القراءة والكتابة والمداد والصحف والخروج من ظلمة الجهل الى الاستنارة بالعلم والصعود به درجات ، فقد شاد به القرآن في قوله في سورة العلق « الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » واهتم به في أول سورة ن بقوله « ن والقلم وما يسطرون » .

وقد راح ابن القيم في كتابه « التبيان في أقسام القرآن » يعدد أنواع الاقلام التي أحصاها في زمانه من دينية ودنيوية وحصرها في اثني عشر نوعاً ـ لا بالنسبة لاشكالها ولكن بالنسبة لما تكتبه ـ قائلاً : فهذه الاقلام التي فيها انتظام العالم واستقامة مصالحه .

ويهمنا هنا من حسبة ابن القيم القلم السادس في احصائه ، وهو قلم الحساب ، ومما قال فيه :

وهو قلم الكمّ المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب ، ومبناه الصدق والعدل ، فاذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر الملك وانتقض .

ومما لا شك فيه أن هـــذا القلم الذي وصفه ابن القيم كائن في قمة الاقلام ، ولا يحركه الا عاقل عالم قد بلغ شأواً بعيداً في الحساب والفهم، ومنه نستطيع أن نشتق كل الاقلام التي كتبت العلوم والتي ما تزال تكتبها، وعلى أي صورة تكون : من صورة القلم الذي هو جزء من قصبة الى صورة الحاسبة الالكترونية الآن او الحاسبة التي لم تخترع بعد . ووراء كل صورة من هذه الأقلام من يحركها من كل انسان عاقل عالم ، وهو ما منّ الله على الانسان وأقسم به في القرآن وفتح له أئمة الدين وعلماء الدنيا طريق التفسير والبيان .

ولا ضرورة الى احصاء ما جاء به القرآن من شأن الموصوف بالعلم والتفكير والتدّبر فهو شيء لا يحصى ، الا أن اهتمام القرآن به الى الحد البالغ فوق الاحصاء ، لأنه مكان الحصول على الدليل ، كما هو مناط العظة ومحل الاعتبار .

التقصير والانجاز

وطوعاً لدعوة القرآن الى العلم التجريبي والنظري، مضى المسلمون في كل العصور الاسلامية يحصلون العلوم على كافة أنواعها ــ ما عدا الضار الحرام ــ ويفصّلون منها ما يستطيعون ، ولم يقصروا في الفلك بل صححوا فيه أغلاط من سبقهم، وقاسوا محيط الارض وأصلحوا التقاويم. وكان من أهم ما بحثوه مسألة انكسار الضوء كما فعل ابن الهيثم ، ولم يستطع أحد للآن أن يجد في قيـــاسه خطأ ، كما صنعوا آلات الرصد والقيـاس .

ولكن الحق أنهم لم يصنعوا شيئاً تجريبياً يكون له خطره في السفر الى بعيد عن الأرض ، سوى ما قيل عن ارسال المقنع الخراساني قمراً في السماء يُرى لمسيرة شهرين ــ قاله الذهبي في دول الاســـلام وبسط الناقدون والمؤرخون فيه الاقوال ــ وسوى ما قيل عن طيران عباس بن فرناس الاندلسي بريش كريش الطائر اصطنعه وركبه لجسمه وطار به ــ قالـه في نفح الطيب ــ .

ومهما كان الاول قد صنع القمر ليتأله به على الناس ، وصنع الثاني الريش ليطير به، فانهما كلاهما كانا في جو من الفكر الاسلامي وأدوات محسوسة من كيمياء أو من علم الاحياء ، ولم يمنع المسلمون المقنع الخراساني الا أنه طغى وكفر ، ثم لم تحصل جيوش الخليفة على سره ، لانها أحرقت كل آثاره ، ووقع الثاني فتأذى ولم يكمل أو يحاول العودة هو ولا أحد بعده لتستمر التجربة للوصول .

والثقافة العلمية التي أطلعت عصر النهضة الغربية لم تكن الا منقولة عن العرب ومن مصادرهم، وقد حاول بعض ذوي الغرض أن ينكروها ، ولكن المنصفين ردوها اليهم كما فعل اينشتين الذي قال : انهم أخـــذوا هذه الثقافة العلمية عن العرب وعن المصادر التي كتبوها .

فاذا بلغ الانسان اليوم أعنان السماء بما أخرج من قوى الارض التي نبأ عنها النبي ، واذا بدا يرى بعلمه التجريبي دقائق الـــكون وحقائق الكواكب ، فانه لم يخرج عما دعا اليه القرآن في شيء ، اذ دعا الى النظر في السموات وما فيها ، ولكنه نظرٌ بالقلم والعقل اولاً ، ثم سيرٌ وراء النظر للتحقيق بالحسّ والدليل .

ومما ينشرح له الصدر لقبول الايمان توفيق الانسان للحصول بدقة على ما يسبق اليه نظره وقياسه ، اذ لو اختلفت طريقة البحث عن حساب النظر والعقل لكان الخطأ والاختلاف منسوباً الى النظر والعقل ، اذ هما اللذان يرسمان الطريق ، فالفضل في التوفيق كله لهما ، ومن أجل ذلك اقتصر القرآن على الأمر به والتوجيه اليه .

نظـــام التأهُب

العلم التجريبي ـ الفكر الاسلامي
التأمل والتبصر ـ المرونة والاخطاء
التربية الصحيحة .

العلم التجريبي

لعله من المستحسن أن نرتفع بالقول هنا الى طريق البحث العلمي حتى نثق أننا ـ بما نقول ـ نبنى على قاعدة ثابتة للاعلاء والوثوب ، وليس مجرد كلام له نبرات وتأثير .

ومن المصطلحات الحديثة للعلم التجريبي أقتبس عنوان مقالي هذا وقد راق لي ما صاغوه من مصطلح في هاتين الكلمتين . ثم راق لي ما قالوه من ان نظام التاهب نظـــام فريد متقن موهوب لكل الكائنات الحية . ثم راحوا يثبتونه بأدلة سليمة الخطوات صحيحة الدلالات .

والحقيقة التي يدل عليها هذا المصطلح أن الكائنـــات الحية تهيء

حاضرها لينبثق منه مستقبل تتطلع اليه بالفكر وبالفطرة ، وليس هو ماضيها الذي فات ، ولا هو حاضرها الذي تعيش فيه .

ونيسر ذلك ونوضحه فنقول: ان معنى حياة الكائن ان يمر في ادوار متعاقبة على الدوام ، وكل دور انما هو حاضر يعد للدور الذي يليه ، فاذا قدّم الحاضر مجموعة علامات يمكن منها توقع نوع من المستقبل دل ذلك على استمرار حياة الكائن باكتمال نظام التأهب فيه . فاذا تعثر الكائن ولم يحمل في أطوائه ذلك الاستعداد وعجز عن التكيف لمستقبله فان ذلك معناه افتقاد الكائن للحياة .

والكائنات الحية كلها تنتظم في هذا القانون : من الخلية البلهاء التي تتفتح وتلتهم الغذاء لتنمو وهي لا تشعر ، الى الخيال العقلي المشبوب الذي يتسع ويتمرد لابتداع الصور والاشكال .

هذان الطرفان وما بينهما من الكائنات الحية تتوجه أفعالها نحو المستقبل ـ راضية أو من غير رضا ـ لأن من شأن الحياة أن تتحرك لتتغير ، وهي تختلف في الغد عما كانت عليه اليوم ، بل هي تختلف في كل لحظة قادمة عما كانت عليه في اللحظة التي سبقتها ، وسواء أكان ذلك عن عمل لا شعوري لا يسترعي انتباهاً او عن عمل ذي شعور عميق يبعث على التعجب والاندهاش .

بل ان العالم في الكل الذي يتألف منه يتخذ كذلك نظام التأهب ، وكأنه ليس الا آلة ضخمة لحساب المستقبل مهما بدا في بعض جزئياته عاقلاً متوهجاً وفي بعضها أبله منطفئاً ، وهو يسير بجميع ذراته

نحو غاية تنتظره ، وسواء أبصر هذه الغـاية أم لم يبصرهــا فهو يحث سيره اليها .

وهذا المستقبل الذي نسير نحوه أو هـــو ينتظرنا لنتحرك معه الى ما بعده بطريقة حتمية ، من الخير لنا ـ ونحن عقلاء ـ أن نعرفه ونكشف ظلماتـه بآلات متنبئة حساسة تعطي أقرب الاجابات الى الصحة ان لم تكن صحيحة كلها ، بغير أن نلفقه مقدماً بناء على صور موهومة في الظلام وآمال مرسومة في الهواء .

وافكارنا وتأملاتنا هي تلك الآلات المنبئة الحاسبة، وهي حين يستقيم فيها نظام التاهب تحتم علينا أن نواجه مستقبلاً محدود الصورة واضح المميزات ، أكثر مما تتنبأ بأحوال الجو المقبلة مرايا المراصد واشارتها الحساسة، تلك التي ان أصابت في أكثر الاحيان فانها تخطىء حين تفاجئها أو تلجمها الزلازل والاعاصير .

الفكر الاسلامي

وربما كان من حق الفكر الاسلامي أن يكون فيمن سبق لكشف نظام التأهب والتنبيه له ومن حقه أيضاً أن ينسب اليه أنه وضع هـــذا النظام في قمة الفضائل ، وذلك حين رأى الحياة كلها تسير نحو التبدل والتغير وتتخطى مدارج المستقبل كل حين .

لقد نظر الاسلام الى مستقبل التشييد والتعلية والتأثيث والنجـــد والمراكب والآلات والترف والتنعم والتغيرات الثورية للعلم والاجتماع ، ونبه الناس الى أن الحياة من طبعها أن تسير بما خلق فيهـــا من تأهب

لتستحدث به عوالم وعادات تتحدى ما تقادم من القيم ، وتبدل ما كان من قوانين السلوك .

ثم القى الاسلام بتعاليمه ليتلقى بها الناس هذه الاحداث حتى لا تمر بهم خارجة عن ارادتهم ، فلم يكن الاسلام بذلك دين الواقع وحسب ، بل كان الدين المتهيء لكل مستقبل جديد .

ومن حيث انزوت المعرفة بنظام التأهب في بعض المذاهب والسياسات القديمة ، ظلت فاعلة ظاهرة في الفكر الاسلامي ـ وان كان قد اهملها المسلمون في عصر الجمود ، أو حالات الغباء ـ وظلت كذلك في القمة من مبادىء الفضائل اذ نادت بها تعاليم الدين في القرآن والحديث .

وأوضح ما يكون ذلك في قول القرآن : « فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » فانه نص في نظام التأهب الذي يزدهي اليوم بكشفه أصحاب العلم التجريبي .

وقد اتفق الموحدون والمفسرون على أن معناه في التخصيص : اذا فرغت من صلاة فانصب للأخرى بلا فتور ولا كسل ، « ثم اتجهوا الى تعميمه في أمور الدين والدنيا : في الصلاة من الفرائض الى النوافل ، وفي العبادة من العمل الى القول والدعاء ، وفي التنقل من الهجرة الى الجهاد ، ثم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاكبر .

وكان في قوله تعالى : « والى ربك فارغب » حث على الرغبة في دوام الطلب حتى النهاية بغير انقطاع ليكون البلوغ الى رضا الله ، اذ لا تكمل أدوار التأهب الا بترك أمور الدنيا الى أمور الآخرة ، حيث

تكون قمة المستقبل في الفوز والنجاة .

ثم نادى حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – بنظام التاهب كما نادى القرآن ، ومن ذلك ما قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – حين سئل : أي الاعمال أفضل ؟ فقال : « الحال المرتحل » قيل : ما الحال المرتحل ؟ قال : « الخاتم المفتتح » .

وكذلك تبدو عملية التاهب في الحديث ناشئة عن الوعي والتعقل ، وهما من خصائص الانسان . ومـــع أن بعض المفسرين قصر الظن في الحديث على مداومة قراءة القرآن، فما يختم القارىء حتى يفتتح ، وما يتم حتى يستأنف ، أو قصوره على الظن في الجهاد فما يعود الغازي حتى يرجع فيحارب، وما يخسر حتى يعاود فيغنم – فان الكلام يتجه الى أن يكون عاماً في كل من يستمر في طريقته أبداً لا ينتهي عند غاية ، ولا يقف عند نهاية .

ولقد كان الباعث على أمر النبي ذاته بمتابعة العمل ومداومة نظام التاهب الذي جعله الله في الانشراح الذي أعطاه صدره وجعله في حط الوزر عن كاهله حتى لا يخيم على قلبه رين ولا يثقله عبء ، وانمـــا وهبه الله قوة الحياة خالصة التاهب لتمضي الى غدهـــا وتطمئن الى مستقبلهـــا .

التأمل والتبصر

وتبدو الكائنات من حيث هذا النظام متفاضلة في درجات ، حتى

يكون أفضلها العاقل ، لأنه يتـأهب الى مستقبله في تبصر ونظر في المقدمات وتأمين للخطوات ، كي يضمن الوصول الى الغـــد الأفضل والمستقبل الأكمل .

وهذه المرحله من التبصر والنظر في العواقب نظر فيهـا الاسلام أيضاً ، كانما يتمثل في دعاء فاتحــــة الكتاب الذي يقول « اهدنا الصراط المستقيم » .

ثم ان الاسلام لم يلزم أحداً بأن يؤدي عملاً ـ وحتى لو كان نذراً بالتطوع ـ اذا كان من أعمال الشر والأذى ، أما أذا كان خـيراً أو في سبيل الخير فانه يلزمه به ليؤديه في وقته كاملاً .

وأشد من هذا قرباً لنظام التأهب حياة الاضطرار المستمرة التي هي أمر ذو أهمية عند أهل التصوف، ولعلهم لم يخطئوا حين أخضعوا أنفسهم لنظام شاق من العبادة المضنية اذ رأوا أنفسهم أفلاذاً في عالم تخضع أحداثه كلها لنظام مستمر خاشع رهيب .

والعارفون الذين بلغوا مرتبة التصوف العليا يقولون انه لا يزول عنهم الاضطرار، ولا يكون لهم مع غير الله قرار ـ كما يقول ابن عطاء الله السكندري ـــ ومعناه : أن العارف لا يزال دائم الافتقار الى الزيادة فلا يزول اضطراره ، آخذاً من قوله تعالى لسيد العارفين ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ: « وقل رب زدني علماً » وهو اضطرار الى زيادة لا تنقطع وترقّ لا يمتنع، وربما كان على الاحياء العقلاء ان يتخلقوا بهذا التصوف فيعيشوا على موائد الاضطرار ، لأن الله بيّـن لهم حاجتهم الى الترقي الدائم بقوله سبحانه : « وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » .

ولا خير في أن تقف العقول في تبصرها وتأملها عند عمليات استدلال بحت . ومع أن الاستدلال في حد ذاته نجاح فانه عند ذلك يكون وقوفاً لعجلة الحياة عن التقدم الى الامام .

ومن ثم وجب أن تكون عمليات الاستدلال ناظرة في العلة والمعلول. ممتدة من خبرة الماضي الى المستقبل لتتحقق في عمليات التعليل والاحتمال والاستنباط حياة الأشياء والازمان، بل وحياة العقول نفسها معها.

المرونة والأخطاء

وما من بد في وجوب مصاحبة المرونة للخلايا الحية لتكون صالحة بها للتبدل والتقدم ، وربما تمثلت المرونة في أن يكون الاحياء أكثر تفهماً لنقائصهم وأقدر على ازاحة غيمات الغرور عن نفوسهم . والمرونة حين ذلك تكون هي نفسها عملية الحياة الدائمة وحركتها الدائبة في المحاولة والتجربة . ولا خوف من أن تقع فيها الاخطاء لان الاخطاء أمور ضرورية مثل النجاح .

ومجال التجارب والمحاولات هو مدرسة الأحياء التي يتعلمون فيها من الاخطاء ، على أن الحيلة ليست هي الفراسة العقلية الهادية وشبهها وحسب، كما كان في عقيدة القرون الوسطى، ولكنها أصبحت في العلم التجريبي سلوك طرائق الاختبار وغشيان دروب الاخطاء من غير انتظار للمصادفة أو اطمئنان للتخمين .

وكأنما كان فرضاً لازماً على المخلوق الحي مهما بلغ عقله أن يقع في الأخطاء ليتعلم الخروج من المأزق ، وهو لا يتعلم هذا الخروج الا اذا

عرف كيف يتجنبها ؛ بل لا بد من تكرار الخطأ لئلا يؤدي الخروج من المأزق بطريق المصادفة الى الجهل والاغترار .

ولم يفت ذلك علماء التجربة المسلمين ، فكان مما قاله جابر بن حيان تلميذ الامام الصادق : ان الزم الاشياء في الكيمياء هو اجراء التجارب العملية، وانه لا يمكن الوصول الى اقل درجة من البراعة بدون اجراء هذه التجارب ، فعليك يا بني باجراء التجارب لتحصل على العلـــم . والعلماء لا يبتهجون لكثرة ما لديهم من المادة ، وانما لما لديهم من طرق تجريبية ممتازة .

والحكمة القديمة التي كانت تقول : « ان السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه » أصبحت قليلة القيمة في نظر العلم التجريبي لانه يرى ضرورة الوقوع في أخطاء من تجارب ذاتيـــة ليحدث منها التصحيح الذاتي المستمر . ولكن من حيث لا تكون الاخطـاء مهلكة مردية ، أما التي تنقل قدم المخطىء على طريـــق الصواب فينبغي ان لا نستهين بها ، لانها المراكز التي تدور عليها دواليب الحياة .

والبديهة في الحكمة الشائعة التي تقول « الرجوع الى الحق فضيلة » تساير العلم ، أو هو يسايرها، لأن مقدار الصحة فيها بالغ كبير ، ولقد بلغ من قدرها أن كثيراً من التجهيزات العلمية سارت أشواطاً طويلة وهي ممتلئة الثقة من الافكار التي أدركتها واستقرت لديها كأنهـــا حقائق لا تبطل .. ثم وجدت نفسها بعد التحول في المستقبل أنها كانت غريقة في خطأ جسيم .

والاخطاء مثلها مثل الجوع والمرض والهزيمة، تعلمنا تنظيم الاحداث فنبذر الحب للشبع، ونستحدث الدواء للمرض، ونهيء القوة للانتصار.. وهذا التنظيم للاحداث هو نفسه حقيقة العلم، وما العلم الا الطريقة المثلى لتنظيم الأحداث.

والاسلام في ذلك كله رائع التفكير، بالغ التقدم، فهو يلوم طلاب السلامة في أصول تعاليمه في الكتاب والحديث، أما الكتاب فيقول: «ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون». وأما الحديث فيقول: «كفى بالسلامة داء»

ومع أن السلامة ليست بداء في نفسها فانها ـ كما يقول الشريف الرضى ـ تفضي الى الأدواء القاتلة والاعراض المهلكة، لأن طولها يؤدي الى موت الشهوات وانقطاع اللذات وحوانى الهرم وعوادي السقم، ومن هذا الوجه حسن أن تسمى السلامة داء اذا كانت موقعة فيه ومؤدية اليه.

ثم ان الخوف ضروري أيضاً في التجارب فلا نزال نحيد عما يخيفنا حتى نهتدي الى القواعد التي نثبت عليها ثم ننظر منها مستقبلاً مكشوفاً، إذ هي حين تستقر تزيد الآمال قوة والاعمال جرأة. أما اذا اهتزت واضطربت فانها لا تكون غير مهاوٍ للسقوط ومزالق للفناء.

التربية الصحيحة

والرسول الهادي الذي يوصي بأن نربي أولادنا لغير زماننا، ويحذرنا بذلك من خطل إغفال المستقبل القريب والبعيد، إنما يكشف لنا في نظام التأهب أسلوباً هادياً من التربية الصحيحة، حيث يوجب كشف الصورة

المستقبلة لعيون الآباء والرقباء والمربين والزعماء ، ومـــا لم تكن صور المستقبل هكذا منظورة واضحة المعالم فان التربية تناقض نظام التأهب وتكون أشبه بالجمود أو رجوع القهقرى ، ان لم تكن أشبه بالتمهيـــد إلى الخيبة والاضطراب .

والعلماء والقادة الذين يلتقون مع هذه الهداية في توضيح الطرق هم الذين يرون من الحكمة أن لا نقف عند تحفظ ساخر ، بـل نسعى في كل لحة وراء المعرفة ونطبق كل جديد منها على ما تعلمناه من قبل حتى ينتهي بنا المطاف لشخصية أكمل وحقيقة أمثل .

وكما يتمثل العلم الحق في هذه الصورة من نظام التأهب فان الغاية من العلم تتمثل فيها كذلك . ولا قيمة لغيرها من تصوير أو وعظ ينحدر من فم واعظ أو معلم ما لم يصبح قولهما خطة عمل للقائل والسامع ينتقل بها من يومه الى غده، ومن خطئه الى سداده، ومن عمله في الحال الىمستقبل من الآمال .

وانه لمن الجائز أن تكون الحقيقة في نفس أحد السامعـــين أوضح وأغور عمقاً منها في ذهن المعلم أو الواعظ. وقد نبه سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ذلك في خطبة الوداع مشيراً الى أنه ربما كان غائب أوعى من حاضر ، ومبلَّـغ اليه أوعى من سامع . وعلي بن أبي طـــالب يقول :

« أوضح العلم ما وقف على اللسان وأرفعه مـــا ظهر على الجوارح والأركان . ثم يقول : العامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع ؟ ».

ولقد نحى القرآن والدين على حامل العـلم أن يكتفي بحمله كالسلع المقفلة المرصوصة لا يدري ما فيها. وقد شبهه القرآن بالحمار يحمل الأسفار، ثم ذمه علي بن أبي طالب بقوله : رب حامل حق لا بصيرة له ينقـــدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة . وهذا منه ـ كرم الله وجهه ـ استعراض لخيبة الغافل مهما حمل من العلم، اذا حمله من غير إبصار واحتقبه من غير معيار !

* * *

إزدوَاج الكائنَات

عقد الحضارة — سبق القرآن
روح الكلمة — السلب والايجاب
رتبة الاعتدال — الواحد الاحد

عقد الحضارة

من شأن الحضارة التعقيد . ومن شأنها أن يتفاقم تعقّدها كلما ارتفعت درجة وقطعت شوطاً .. وربما كان على الذين يواجهونها بالتعرف اليها وتفصيل أمورها أن يبذلوا أقصى الجهد الفكري لتناول بعض عقدها بالتعرف والتفصيل .

وربما نظرت العيون الى أقوال هؤلاء نظر الواقفين عند شاطىء بحر خضم أو بحر مسجور ، فهم يغضون أبصارهم كلما شق عليها أن تقطع مدى اللجة ، أو يفرون بجلودهم قبل أن تسعرهم حممه أو تتلقفهم أواذيّة .

هكذا أحس وأنا أكتب هذه الكلمة في حضارة الاسلام، لأنها تتناول

احدى عقد حضارته التي لا تلتقي فيها بالعلم وحسب ، بل تلتقي بالقمة التي بلغها العلم بعد أكثر من ألف سنة ونيف من الكلمة التي قالها القرآن ، ومن شاطىء آخر غير الذي قيلت فيه .

ومع أن المفسّرين والمؤوّلين لم يعدّوها كلمة عابرة ، فانهم لما سلموا بصدقها لم يستطيعوا أن يضربوا لها غير الأمثال التي تتناول المظاهر الكبرى ، والتي ترى بالنظر أو تلمس بالخاطر دون الدقائق الصغيرة أو الخفية ، والتي حين تدرك تعتبر دليلاً قاطعاً ، وكانوا على معذرة ، فإن العلم ذاته لم يصل الى هذه الدقائق الا بأضخم الآلات وأدق المناظير .

ومثل هذه الكلمة بين ثلاثة أنواع من الناس ، نوع لا يقرأ أو يقرأ مجتازاً عرض طريقه مسرعاً لئلا تدهمه دهمة أو تعوقه صدمة ، فالكلمة من مثل هذا النوع في مأمن حيث أخلوْا لعبورها الطريق . ونوع يقرأ وهو يتندر من تناول هذه العُقد بالكلام الذي يبتعد عن أن يكون قصصاً مسلياً أو رأياً بادياً ، وربما في بيئة قد وقع في نفسها أن تباعد بين العلم والدين وأن تحاجز بينه وبين القرآن، بغياً منها على القرآن أو حرصاً منها عليه ، وكلاهما سواء .

ونوع ثالث قد امن - وهو يجمع بينهما - أن يقع في مزلّة ، فجعل من العلم والكشف دليلاً على صدق القرآن فيما جاء به من قضايا العلم كما جاء في كل ما تناوله من قضايا ، من حيث لا يعتسف هؤلاء الطريق ، ولا يحمّلون القول ما لا يطيق .

ولعلي - مما أجد في إيمان هؤلاء - أجد أن أمضي فيما ظننته من المحاولة

التي تكشف عقدة قد التقت في حلها يد الدين ويد العلم ، وكانت يد الدين أسبق ـ وهذا أمر لا بد منه ـ لأنها يد الهداية التي أشعلت مصابيح الالهام وأضاءت أنوار الخواطر ، ثم هي كلمة الله الذي علم الانسان ما لم يعلم .

أما يد العلم فكان لها أن تتأخر ، لأن عليها أن تبحث وأن تجرب ، ثم تمضي في البحث والتجربة ، حتى يحين لها أن توجه موجة الاستقبال الى قوة تجمّعه ومصدر بعثه ، ثم لا يحين لها أبداً أن تبطر اذا حان لها أن تفخر .

وعثور العلم على دليل لقول رافقته الدعوة الصادقة بأنه من السماء ـ مهما كان هذا القول مجملا ـ يقضي على العلم بأن يؤمن بهذا القول متى استقر عند العلم صدقه ، ولو كان ذلك القول المجمل قد تنزل على انسان من غير صنّاع الآلات وكاشفى المجاهير ، بل مهما كان أمياً موغلاً في البعد عن كل ما يمت الى خطوط الرسم والكتابة ، الا ما صدق فيه بأنه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم .

ولا ريب في أن العلم من معاني الحق الذي يهدى اليه ، فاذا بلغ الناس شاطئه ورأوا اقراره وجب أن يؤمنوا بمعرفة الحادى ويشكروا فضل الهادى ، لا أن يتنكروا له أو يدّعوا أن الآخر لا يمت الى الأول، وأن الغاية لا ترتبط بالبداية . ومن قبل عد الناس في الحكماء كل من ألقى قولا صدق في القياس ، وسموه حكيما ، فكيف يرجعون عن قياسهم ليرتكسوا فيما ارتكس فيه سالبو الصفات ويقولوا : إن الذي صدق في قضايا

العلم بأحكام فاصلة نهائية فيه ـ قبل أن ينظر العلماء ـ لم يكن عارفاً ولا عليما ؟ !

سبق القرآن

ولقد سبق القرآن العلم إذ دل في أحد أخباره على ثنائية الكائنات وازدواجها ، في قول الله سبحانه : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ، وهو خبر يشمل أشياء الكون كلها ـ بلا استثناء ـ من حيث لا يصيبه نقض ولا يعتريه نسخ ـ فيما قال الفقهاء ورأى العلماء .

أما أنه لا ينقض فقد أضاء الزمن للعلم ظلمات رحلاته الى هذا الكشف الذي أوضح تكوين الخلية ثم تكوين الذرة أو الوحدة الثنائية في كل الأجسام ، فطابق العلم قول القرآن وزاد صدقه رسوخاً وثباتاً .

وأما أنه لا ينسخ فهو من أحكام المفسرين والفقهاء بان اخبار القرآن الثابتة على الخبرية لا يجري عليها النسخ دون إنشاءاته ، لأن الله ـ سبحانه ـ تنزه عن سوق قضايا ناقصة في الاخبار . أما الانشاءات فتتعلق بالتشريع المتنقل بين الأمر والنهي والاستحالة، وهي أمور تتغير وتتطور بتطور الناس والأحداث .

وما من شك في أن الخبر في القرآن عن ثنائية الاشياء كلها وازدواجها ـ إن كان قد رمى الى ضرورة تفهم ألوان الحياة وأحوالها وأشكال الاجزاء فيها بهذه الثنائية والازدواج ، ـ فانه دعا في أثنائه الى تأمل قضية من العلم أو قضيته كلها ، وحث على البحث وراءها لاثباتها أمام النظر كما هي ثابتة بالخبر .

ومهما قصر العرب في كشفها ، بل صار فيهم من يحاجز بين القرآن

والعلم ، فانه لم يعد من سبيل الى نكران اتصالهما ـ ولا سيما في هـــذه القضية التي تعدّ أصلاً جامعاً ـ ولا يزيد المؤمن ثقة في الكتاب المنزل أعظم من أن تأتي حقائق العلم وكشوفه مثبتة لقضاياه . أما اذا لوى الغرور الأعناق عن هذه الصلة فهي فتنة التفريق بـــين الحقائق ، وإهمال الطرق الواسعة الى الحافات والمضايق .

واذن فكل شيء من الكائنات من أوائل أو مركبـــات ثنائي مزدوج ، وقد يكون العلم عبر عنه أخيراً بالتقابل أو بالسالب والموجب المتحدين أو المتجاورين في كل خلية وكل ذرة وكل كائن ، وكانت العلوم النظرية وأقوال أهل الدين تضرب الامثال لهـــا في كل المجسمات وكل المعنويات .. حتى في خلقة الجن ردّ ابن العربي في أحكام القرآن على من رأى أنهم بسائط قائـــلاً : ليس في المخلوقات بسيط ، بل الكل مركب مزدوج . انما الواحد الله سبحانه ، وغيره مركب ليس بواحـــد كيفما تصرف حاله .

ولم يتعرض أحد لنقض هذه القضية ، بل ان أهـل الحقيقة والسرّ ـ وهم الصوفية الذين سموا أنفسهم كذلك ـ تركوا الاحـــكام النظرية الى الحقائق الخفية الباطنة وأجروا ذلك على ما جاء بـه القرآن ، ومهما رأت العيون أو شعرت الأحاسيس بشيء يبدو لها كأنه موحـــد فهو ثنائي ، ولكنها كانت منهم ظاهرة تصديق وايمان لا عملية كشف واستيقان. وابن عربي وهو في قمة التصوف ـ يقول في ذلك :

وكل شيء من الأكوان نعلمه   موحداً هو في القرآن مزدوج
فليس يوجد فرد ليس يشفعه   شيء سوى من له التقسيم والدّرَج

غير أن عيون الناس وخواطرهم رأت هـــذا الازدواج في الذكر والأنثى ، والسماء والارض ، والقرب والبعـــد ، والطاعة والعصيان ، والحياة والموت ، ورأته عيون الآلات والجـــاهير في السالب والموجب والانتظام والانحلال ، فصارت الاشياء التي رأتها العيون أمثلة صغرى وصارت الحقائق التي رأتها الآلات والجاهير أصولا كبرى، وصار من حق هذا الكشف العلمي أن يكون الدليل الأول على صدق قضية القرآن .

روح الكلمة

ولقد صار في ودّي ــ على لهفة ــ أن تستلهم هــذه المحاولة كل من يستطيـع أن يزيدها سعة وقوة من دقائق الكشوف التي بلغتهـا العلوم الطبيعية اليوم من أسرار الكون . غير أن القليل اليسير والظاهر الجلي من أنبائها قد أتاح ــ حتى لمن لم يعرف شيئاً كثيراً غير الأوليات ـــ أن يعرف الأصل الذي تنفصل عنه الأجزاء ، سواء منها الأولية الصغرى أو التي تتراكم وتتوالد حتى تحدث العقد والمركبات ، وهذا الأصل هو الذرة حاملة الايجاب في النواة ومن حولها السوالب السابحات .

وفي وسعنا أن نتصور الذرة مكبرة من غير مجهر ، وأن نتصور هذه المكبرة بارزة الى الحد الذي نتقراها فيه باللمس ، وفي مقدرة الخيال أن يفعل ذلك ، فقد أمكن للبحتري الشاعر أن يتقرى بيده تاريخ الفرس القديم من لمس النقوش البارزة في القصور ، حيث قال :

يغتري فيهم ارتيابي حتى ⠀⠀⠀ تتقراهمو يداي بلمس

وذلك حتى تكون الحقيقة بارزة الوجود لا تحتاج الى جهد في البحث ولا تيسر سبيلاً الى الانكار .

ورجال العلم الطبيعي يقولون ـ بعد الكشف والتحري ـ إن هذا الكون الذي نحن منه والذي نحن نعيش فيه ، يتركب من شيء أولي هو الذرة، يؤلفها السالب والموجب فيها بالاتحاد أو التجاور فتتكون هيئتها، ثم تندفع تحت أحوال ومؤثرات لتؤلف مع ذرات أخرى كل الأجسام وكل الأجرام .

وربما كان أهم من هذا كله أنه قد ثبت أمام رؤية العلم أن الأصل الذي بني منه كوننا محتاج الى التكامل بأجزائه ، ولا يمكن أن يؤلف فيه جزء محتاج واحداً صحيحاً ، حتى اذا تألف فيه واحد منه بتكامل جزءيه الناقصين المحتاجين احتاج هذا الى آحاد أخرى مثله متألفة من جزءيها ليكون المجموع المتراكم أو المتوالد جسما صغيراً أو جرماً كبيراً .

وروح هذا التكوين وسره كائنة ـ اذن ـ في الحاجة المخلوقة معه والتي تدفعه بارادة الأحوال والمؤثرات الى الالتحام في نفسه أو مع غيره ، لئلا يكون في وجوده قوة الاستغناء ببعضه عن بعضه أو بنفسه عن غيره ، ويكون كله في النهاية ـ مهما تمادت به الضخامة ـ مركباً من فقر وحاجة ، فلا يستغنى عما نسب اليه من مؤقت صفة الوجود .

وليس هذا كل ما في الأمر، فلم يكن السر الذي خلق به الكائن والذي كشفه العلم ـ وهو طبع الاحتياج فيه ـ لم يكن هذا هو كل ما بلغه العلم، ولكننا نلمح ـ مما قاله العلماء ـ أنها حاجة ملحة ضارية ، فلا يبقى سالب

في ذرة ولا موجب الا وهما ميالان الى الالتحام في ضراوة وقسوة، فاذا لم يوفق كل سالب الى موجبه الأول أحدثت الضراوة الى الالتحام والقسوة فيه فناء حتما وزوالا أكيداً .

وقضية هذا التفاني في التلاحم وحدوث الفناء من فعله ـ والذي أشار اليه العلماء في حدوث الطاقة ـ قد صار من الممكن أن ينقل الى روح الفكر الأدبي والتفكير الديني المستنير ليكون زاداً جديداً للأول وحجة دامغة للثاني ، لان ثمرة العلم أن يكون حجة وأن يكون زاداً .. ومن حق الكشف الجديد أن يكون دليلا وحجة للأخبار التي جاءت من قبل بثنائية الكون .

على أن هناك قضية علمية أخرى جاءت بها هذه الكشوف في أثناء هذه القضية ، وهي أن الكون في حاجة وتضوّر حتى يستطيع أن يثبت على حال من الوجود ، وهذه الحال تزول عنه اذا اضطربت ذراته وانقسمت فتحولت الى طاقة والى فناء .

ومعنى هذا أن الوجود والفناء لهذا الكون متعادلان ، ولا يرجح أحدهما الا بما يرجحه من الظروف والأحوال ـ التي تظل دوافعها مجهولة وربما كانت خارجة عن إرادة الكائن نفسه ـ فمن نظر اليه وذراته ذات انتظام وثبات حسبه موجوداً ، ومن نظر اليه وهي بلا نظام ولا التحام توهمه معدوماً .

ومن قبل لم يقل علماء الصوفية بغير هذا ، غير أنهم نظروا الى أن العالم في حالة وجوده مؤقت متخيّل الوجود ، وما هو الا كظل الشجرة أو صخرية الثلجة أو الصورة في المرآة ، وهذا الكون المتخيل الوجود

عندهم كأنه معدوم بالنسبة لواجب الوجود . وحقاً إنهم بالغوا فرجحوا نظراً على نظر، فتندر الناس بما قالوا ، ولكنها لم تلبث أن حققها العلم في تعادل الوجود والفناء في الكائن ، ولا ترجح حالة منهما الا بما يرجحها من أحوال ومؤثرات .

السلب والايجاب

والتقابل أو السلب والايجاب ، أو النفي والاثبات ، يجد الانسان في نفسه وفهمه الفرق بينهما بديهة ، ويحس به من غير تفكير . ولكن العلم بهما قد جاء بالغريب المذهل ، فقد رأى العلم أن حركة التعادل في الذرة أو النقص والزيادة فيها انما تجري في سالبها بتغير أعداده من حيث يتهيأ الموجب لهذا التغيير بما يتغير فيه من شحنات .

ومن حيث إنها محاولة لتناول دقائق العلم بلغـــة الأدب والبحث ـ وقد يكون فيها بعض التساهل ـ فمن غير اعتساف لتطبيق ما يجري في الذرة على الافكار والأوامر والنواهي تطبيقاً كاملاً تصل الى الدهشة البالغة في وجود شيء كثير منه فيها ، وذلك ليصدق الازدواج على كل شيء .

ولعله من الخير أن نعود الى ما بدأنا به هذا المقـال من حاجـة الى العارف المؤمن قبل أن نمضي فيه،ثم نمضي ـ في محاولة متواضعة ـ فنقول:

قد جرى في عرف اللغة ـ أي كل لغة ـ أن الامر يختص بالايجاب والنهي بالسلب ، ولم يقع هذا العرف منها الا عن عقلانية وإدراك عميق . والمتأمل يرى الاقلاع المنهي عما تلبّس به المنهي أصعب من الاتباع بالامر ،

فربما احتاج الإقلاع والتخلي الى قوة وشجاعة تجريان فيهذا السالب حتى يتغير، إذ لا يقع النهي الا علىأمر واقع قد تلبس به المنهيّ واستمر عليه، من صفة مكتسبة أو طبع لازم.

وكان النهي صعباً لانه اذا أطلق كان على المنهى أن يغير المتلبس به كله ويتركه، ثم يتركه أبداً، وهو أصعب من الامر الذي لا يوجب كل هذا التغيير ولا يوجب اتباع المأمور به كله، وإنما يأتي المأمور بما استطاع منه. ومن ثم وجب النظر الي كنه السلب وسيرته حتى في الكلام.

ومن عجائب هذه القضية في شريعتنا قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديثه « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » ثم صب النبي بعض غضبه على رجلين سبقا الى عين تبوك فشربا منها، وكان قد نهى عن أن يمس أحد من مائها شيئاً قبل أن يأتي، وعاقبهما، ولم يكن في نهيه وعيد متقدم، فثبت أن النهي كان كله على الوجوب، وهو يدل على أن المشقة والتغيّر تلازم النهي من حيث يلازم الرفق الأمر والإيجاب.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان النهي أمر بالترك الذي هو ممكن لكل أحد،وليس بممتنع على مخلوق، كما أن ترك المرء لأفعال كثيرة في وقت واحد شيء ممكن الوجود.

وفي التطبيق على كثرة الحركة في السالب نختار من أمور الشريعة أمرين ظاهرين: في بيعة النساء وفي وفد عبد القيس: أما بيعة النساء فقد صرح القرآن في بيعتهن بأركان النهي في الدين، ولم يذكر أركان

الامر ، فقال ــ سبحانه ــ «يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم».

وقد قال ابن العربي في كتابه أحكام القرآن : وفي اعتماده الإعلام بالمنهيات دون المأمورات حكمان اثنان: أولهما أن النهى دائم والأمر يأتي فى الفترات ، فكان التنبيه على اشتراط الدائم أوكد . وثانيهما أن هذه المناهي كانت في النساء كثير من يرتكبها فخص الله النهي بالذكر لهذا .

وفي وفد عبد القيس قال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالايمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم . وأنهاكم عن الدّباء والحنتم والنقير والمزفت »

والمتأمل يرى أمر الرسول بالأربع قد وقع كل أحد منها على شيء مستقل، ولكنه يرى الحركة في النهي قد وقعت حول آنية الخمر أربع مرات، واستوعب رسول الله آنيتهم التي كانوا يشربون فيها الخمر وينتبذون فيها فتسرع الشدة الى الشراب ، فذكر فوارغ قشور القرع وجرار الخزف المدهون وغيرها ، والمنقور من أصول النخيل ، والآنية المطلية بالزفت ــ على التوالي ــ فوقع بذلك التأكيد على كل إناء عتقت فيه أو شربت ، فتناولها النبي من أول أمرها الى آخره ، فكأنه كرر النهي عنها بعدد الآنية التي ذكرها دون أن يكرر من المأمورات شيئاً واحداً .

فهل صار من حق القول اليوم أن يطبق في مثل هذه الاشياء كشوف

العلم التي شاهدت ظهور الحركة في السوالب ودورانها حول موجبها حتى يحدث التعادل أو التفاني . وهل يكون في هذا الكلام – من غير اغترار – محاولة متواضعة في اتخاذ هذين المثلين لما يمكن أن يحدث في كل ثنائي من الكون حتى الخواطر والأفكار والكلام ولو لم يكن أخباراً ، وهل يمكن أن يشير ذلك الى حركة السالب في كل الاشياء ، مع ادراك ما بين المجسدات وغيرها من فروق ؟

رتبة الاعتدال

وامعاناً في الشعور بطبيعة الحركة في السالب ، حتى تتكيف الصورة في الكائن الثنائي بكيف خاص ، استلهم علماء النظر والشرائع الاهتمام بأمر النفي والإثبات ، وجعلوا للنفي رتبة أولى – وربما لم تكن زمنية – ولكنها اتخذت أوليتها بوجوب ظهورها في اتخاذ كيف الاعتدال.

وقد رأى اهل الشريعة – من غير دخول في التخلية عند أهل التصوف – أن تتطارح النقوص والمنافي الزائدة وتبتعد عن النفس ، مع احتفاظها بما يبقى منها في دائرة الحلال ، حتى يحدث كيف الاعتدال ، وذلك كالإسراف في الطعام والشراب أو الحرمان منهما ، فلا يمكن ابتلاع الزائد كله او طرح الطعام والشراب كله ، بل يطرح منه ما زاد ويبقى ما يكفي ، ليحدث التعادل في الكيفية التي تسمى طاعة ، بعد أن كانت عصياناً في هيئة الإسراف وهيئة الحرمان .

ومن طرفين متقابلين اتخذ الرأي المعتدل الصائب ضرورة محاربة الجوع ومحاربة الجشع : وربما تهيأ للضرورة الأولى علماء التغذية وتهيأ للضرورة الثانية علماء الدين ، وذلك في محاولة خلق الاعتدال في الأفراد ،

أما في الجماعة فربما كان رواد المساواة وأئمة العدل هم أمثل الناس رأياً في خلق الاعتدال ، وذلك بازالة الغنى والفقر كليهما في آن واحد ، فلا يكون إسراف ولا حرمان ، وتحدث هيئة السعادة في الجماعة الفاضلة بما اتخذته من رتبة الاعتدال ، وفي كل هـذا لم تفارق صفة الازدواجية كائناً ما صغيراً أو كبيراً، فرداً أو مجتمعاً، جسماً أو فكراً .

ولأمر جد خطير قدم الله ـ سبحانه ـ في شهادة الاسلام والاقرار بوحدانية الله نفى الاسراف والشرك ، بسلب الالوهية من كل إله ما عدا الله ، فالتقى في فكرة التوحيد سلب وايجاب من حيث اتخذ السلب أهمية التقدم – ولو في الزمن – حتى يستقر الايمان على قاعدة قد أزيل عنها الإسراف في احتشاد سوالب الكفر التي لاصلة لها بواجب الوجود ، الا أنها من كائناته المخلوقة،ولا يمكن الا أن تكون في دائرة الكائن الثنائي المتضور الاحتياج .

واذن فقد وقفت هذه الكائنات الثنائية كلها موقفاً مبايناً لذات الله، ولا بد أن تكون ذاته – جل شأنه – خارجة عنها، حيث نبطل –لامحالة– مقالة الكفر التي قالت بالوحدة والاتحاد .

الواحد الأحد

وحيث قد كشف العلم نواة هذا الكون ، وأدرك سرها وعلم أنها اثنينية وازدواج ، فقد صح أن يكون هذا الكشف دليلاً علمياً قاطعاً يساند القرآن والحديث وآراء الشريعة على أن الواحد الفرد لن يُدرَك بالإحاطة كما أدرِك الكائن – لا في آفاق الظن ولا تحت مجاهر العلم ،

وكانت هذه دعوى الدين،وقضية صادقة أخرى من قضاياه،فصارت دعوى العلم ؛ لأن العلم قد ألقى عصاه عند ادراك الاثنينية والازدواج ، دون الفردية المطلقة ، وهي حجة تلزم كل من أدرك أو ضل أنه مخلوق محتاج، وأن تراكم الكائنات وتوالدها انما هو من صفات النقص دون الكمال الذي يجب أن لا يكون الا لفرد واحد يتجاوزه التعدد والاحتياج .

وفيما أخبر الله – سبحانه – في القرآن عن نفسه وعن ازدواجية الكائنات مدهشات من الأمور : فقد تحدث الله عن نفسه بصورة الجمع اللغوي في إخباره بخلقه الاشياء حيث قال : « ومن كل شيء خلقنا زوجين.. » وفي غير هذا الخبر تحدث عن نفسه بصورة المفرد أو صورة الجمع .

أما في المفرد فقد ذكر نفسه بـه مظهراً ومضمراً في مثـل قوله ـ سبحانه ـ : « انني أنا الله لا إله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » فلأنه واحد أحد .

وأما في الجمع كقوله ـ سبحانه ـ « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » . فان صيغ الجمع التي وصف بها نفسه لا تنحصر في عدد وانمـا تقتضي التعظيم . وفي هذا كل المباينة بين أحديته وثنائية الكائنات .

ولم يكن جرياً – وحسب – جريان لغة العرب على ألسنتهـا ، حيث يتحدث الكائن منهم عن نفسه بالمفرد والجمع ، ولكن عن تحري الدقة والصدق في وصفه تعالى لنفسه بما لا يخرجه عن الأحدية ، والا فقد جرى لسان العرب في أن يحدث الرجل نفسه بالثنائية عن عقلانيةوشعور

بالازدواج الذي اختصت به لغة الشعر، عندهم ، فاشتق الشاعر من نفسه اثنين وخاطبهما في قوله « قفا وخليليّ . وصاحبيّ » ، أما الله ـ سبحانه ـ فلم يذكر نفسه بصفة التثنية قط ، لان هذه الصفة تدل على العدد المحصور في اثنين ، وهو – جل شأنه – مقدس عن ذلك ، أما الجمع فلا يدل على عدد محصور .

وتعدد الاشياء في الكائن جعل للأمور المتشابهة فيه قياساً . وجرى القياس بالنفي والاثبات في النظائر والاشياء ، أما حيث لا يوجد نظير ولا تُرَى ذات مدرَكة الكنه فلا قياس ، وهو قوله تعالى عن نفسه : « ليس كمثله شيء » وقوله « قل هو الله أحد » وقوله « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » .

والشريعة وحدها هي التي ادّعت في صدق أن وراء الغيب رؤية الواحد، وهي التي جعلت النفوس مستشرفة لهذه الرؤية ـ والاستشراف أمل – من حيث لا مطمع في أن يدرك الكائن الثنائي ذات الواحد الأحد ادراكاً محيطاً ، لانه ليس من طبعه ولا شكله ، وانما تتعارف الأشكال .

وكل ما جاء في الرؤية من قرآن وحديث منصب على كيفيتها دون كيفية المرئي .. وقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : « ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » ، في تأكيد قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » ، انما يشبه فيها رسول الله الرؤية بالرؤية من غير

تكييفها، ولا يشبهالمرئي بالمرئي، وانما ظل المرئي — سبحانه — بعيداً عن التحديد والادراك المحيط .

وواجب الوجود لذاته ، فمع أنه غني – لا محالة – عما سواه ، فهو بالنسبة لتساوي الوجود والفناء الحادثين للكائن — بمشاهدة العلم — لا تؤثر فيه الاحوال والمؤثرات فلا يجوز عليه العدم ولا الحدوث .

وحركة السلوب الكثيرة في الكائن جائز الوجود ، قد قابلتهاحركة كثيرة في اثبات الصفات للواحد الأحد . ومن ثم بعث الله رسوله في حقه ـ جل شأنه ـ بتفصيل الاثبات واجمال النفى ، مع انصباب النفى الىغيره كما في قوله تعالى « ليس كمثله شيء » ، فاثبتوا لله الصفات الكاملة على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل .

★

مَنازل التّأويل

ازدواج الكائنات – طريق المناطقة
تطور التأويل – دحو الارض
اشارات القرآن – استقرار الصواب

ازدواج الكائنات

في مقالي السابق جرى الكلام حول ازدواج الكائنات ، وقد تبين من التقاء نص القرآن بدلائل الكشف العلمي الأخير أن كل مخلوق مزدوج – مهما كانت صورة هذا المخلوق من الإفراد أو التركيب – ولم يكن من مرامي الكلام أن ينحصر الكائن في الاثنينية بالعدد المحصور في اثنين ، وانما كان مرمى القول أن كل شيء انما هو مخلوق من أجزاء متحاوجة أقلها اثنان ، فان كانت تحتاج الى ثالث أو أكثر ليحدث اتحادها أو تراكمها فهي أشد دخولاً في حدود الازدواج .

وتبين أن سر الازدواج كائن في احتياج الجزء الى الجزء أو الكل الى الغير ، ثم الى الحاجة المتضورة في ذوات الاجزاء والآحاد ، وكل ذلك

ما عدا الوحدانية المطلقة التي لا يكاد يدركها الظن ، والتي ارتفع الله بها عن الانقسام والاتحاد والحاجةوالتضوّر ، فكان له الغنى والكبرياء .

والاثنينية كما هي مركب وجود مؤقت ، هي مركب فساد أيضاً – وقد سمي مكانها القدماء بالكون والفساد ، وظنوه ما تحت فلك القمر ، ثم بان اليوم قصر نظرهم فيما ظنوه . وقد أوضحت في المقال السابق تعادل كفتي الوجود والفناء في الكائن ورجحان أحدهما بما يرجحه من حال وارادة هما خارجتان عنه لا محالة .

ونزيد هنا – بدلائل الكشف العلمي أيضاً – أن تغير الصفات على الكائنات يدل دلالة حاسمة على أنها محدثات، وأن هذا الحدوث الذي أدخلها تحت طائلة القياس صار علة على فنائها كما كان علة على وجودها .

وقد تبين كذلك فساد فكرة الشرك التي سادت زماناً في الآلهة، وقد قرر القرآن في عدد كبير من آياته أنها فاسدة في ذاتها فاسدة في آثارها :

أما فسادها في ذاتها فمن مثل قوله تعالى : « لا تتخذوا إلهين اثنين » اذ الاثنينية – كما أوضحنا معناها وحدودها هنا وهناك – تدل على الاحتياج والتضوّر ، وتدل على احتمال الوجود والفناء بارادة خارجة وأحوال طارئة لا بد أن يكون مصدرها منزهاً عن الحاجة والتضور واحتمال الفناء .

أما فسادها في آثارها فهو من مثل قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » اذ بزوال الوحدانية والغنى والكبرياء والوجود المطلق يدخل المجرد من هذه الصفات في حيز المخلوق المحتاج، ومن ثم لا يستطيع

أن يخلق الاشياء ولا أن يهب لها وجوداً مؤقتاً – كما هو في الحياة الدنيا – ولا وجوداً ممدوداً – كما هو موعود به في الآخرة – ولكن بدلالة التمانع الذي أشارت اليه الآية ثبت وجود الصانع الواحد بلا قياس .

وهكذا تأتي آيات من القرآن نصوصاً لقضايا من الوجود يثبتها الكشف العلمي أو يقصر عنها ، ومعه العقل الموهوب يستنبط حقائقها في أضواء الكشف ، وهذا فيما يستطاع ادراكه . أما ما لا يدرك فلا يمكن أن يكون ضعف العلم والعقل عن ادراك ذاته تعالى آخر حدود الوجود المطلق اذا صح أن يكونا قد أدركا آخر حدود الوجود المؤقت الذي قيده الازدواج . وكلا الأمرين قد جاء بهما القرآن ، فما كان مستطاع الادراك أطلق العقول والجهود وراءه ، وما كان غير مستطاع حبس الظنون عنه لأن في اطلاقها وراءه إعناتاً لها من غير وصول .

طريق المناطقة

والقضايا التي ساقها الكتاب الحكيم ، قد أرسلها على نهج عربي ، في غير أسلوب المقدمات والنتائج بالترتيب الذي نظمته المناطقة وأرباب الكلام ، وكان مفهوماً لدى القوم الذين نزل عليهم لأنهم كانوا على قمة ذلك الارسال ، فحين انحدروا عن السفح الذي كان عليه الفهم للسياق العربي توهمت الظنون أن القرآن لم يخض هذه المخاضة ولم يسبح في هذه اللجة ، وكان التأخر عن رتبة القوم موجباً للإعراض ، ولم يكن الذنب الا ذنب العصور التي تتغير وتطول فتباعد بين الأولين والآخرين .

الا أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة بطريقة ابتدعها لفاهميها ، ومن حق الزركشي صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن أن يساق كلامه الدقيق في هذا الشأن وهو يقول :

وما من برهان ودلالة وتقسيم ، وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية الا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما بسبب ما قاله : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » والثاني أن المائل الى دقيق المحاجّة هو العاجز عن اقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فان استطاع أن يُفهم بالأوضح الذي يفهمه الاكثرون لم يتخط الى الأغمض الذي لا يعرفه الا الاقلون ـ وكذلك أخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلّ صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يُوفِى على ما أدركه الخطباء .

ثم يقول الزركشي : ومن ثم كان على كل من أصاب حظاً في العلم أوفر أن يكون نصيبه من علم القرآن أكثر ، لان عقله حينئذ يكون قد استنار بأضواء العلم، وهؤلاء هم الذين اهتم القرآن بنداداتهم كلما ذكر حجة على الربوبية والوحدانية ، أو أضافها اليهم أولو الألباب والسامعون والمفكرون والمتذكرون ، تنبيهاً الى أن بكل قوة من هذه القوى يمكن ادراك حقيقة منها .

وعلى هذا القول فانه في الامكان لكل من يدرس العربية دراسة

مستوفاة ويجمع اليها درجات من العلم أن يعود الى دراسة أساليب القرآن وتفهمها ، محاولين أن يؤلفوا بينها وبين حقائق المنطق وكشوف العلم ، ليدركوا ذوات انفسهم التي أراد أن يحققها لهم القرآن ، فلما أغفلوهـــا فقدوهـــا .

وقد ضرب صاحب البرهان مثلاً لمـــا تباعد عنا من أساليب الدلالة لتأخرنا عن القوم بقوله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث اللهمن يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر النـــاس لا يعلمون . وليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » فيقول: هاتان الآيتان يخيل لمن لا يعرف أسلوب العرب في المحاجة أنها دعاوى تنبىء عن الغيب وليس غير، ولكن ابن السيد البطليوسى يقررها فيما يلي :

ان اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه ، وانما تختلف الصور الموصلة اليه والحق في نفسه واحد . فلما ثبت أن ها هنا حقيقة موجودة لا محالة ، وكان لا سبيل لنا في حياتنا هذه الى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع هذا الاختلاف ـ اذ كان الاختلاف مركوزاً في فطرنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله الا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها الى جبلة غيرهاـ صح ضرورة أنلنا حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يرتفع الخلاف والعناد ، وهذه هي الحال التي وعد الله بالمصير اليها فقال « ونزعنا ما في صدورهم من غل » ولا بد من كون ذلك باضطرار ، اذ كان جواز الخلاف يقتضي الائتلاف لانه نوع من المضاف ، وكان لا بد من حقيقة ، فقد صار الخلاف الموجود أوضح دليـــل على كون البعث الذي ينكره المنكرون .

تطور التأويل

وعلى القول الذي يفرق بين أصل التفسير وأصل التأويل وهو أن التفسير نصوص قالها الرسول أو أقوال قالهـــا الصحابة والسلف الذين تبعوهم على مقربة من زمانهم ، وأن التأويل هو كل ما تطارح اليه الظن في المتشابه من آيات القرآن لا المشتبه ـ وبينهما كذلك خلاف – فالمتشابه ما ما أمكن تأويله أو رده الى محكم ، والمشتبه ما منع السلف الكلام فيه كالاستواء على العرش ـ فيذهب اليه الظن من غـــير تعسف أو تعاضد للفتنة . فقد فتح هذا القول الباب ـ منذ أول الأمر ـ الى أن يصار الى التأويل ، ثم الى تأويل آيات العلم خاصة ـ وكل عصر عند حقائق العلم أو ظنونه التي يصل اليهـــا – وقد رأى المسلمون ذلك تكليفاً لذوي العلم منهم حتى يصدعوا بما أمروا به من التبليغ في انصراف أمره تعالى اليهم حين يقول : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » وحين يقول « ثم ان علينا بيانه » أي على لسانك أيها النبي وألسنة العلماء من الأمة كلها .

وقد قام أفراد من أعلام العلم وتألفت جماعات منهم – ومنهم جماعة الخبراء في المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية اليوم – متصدين لتبيين الآيات المصروفة الى **العلوم** وتفصيل ما أجملته ، وكان ذلك تلبية للامر بالتبليغ أكثر من أي نفع حصل عليه الافراد أو الجماعات . ومع أنه كان في خدمة التأويل وتلاقي الأدلة العلمية مع حقائق القرآن فقد كان حثاً للاجيال القادمة على أن تنص ركابها الى بحث ما في القرآن من غرائب العلم التي

يكشف عنها تقدمه ، والتي يدركها كل جيل في عصره الذي يعيش فيه .

ولم يقصّر كثير من علماء المسلمين في عصور ازدهار العلم عن التطوع لهذا العمل بحصافة وجرأة ، حتى كان في حصيلة التأويل والتقاء مسائل العلم وقضاياه في القرآن ما وصل الينا في عدة ألوف من الكتب تسبح وراء علوم القرآن . وقد أفرغ هؤلاء ما عندهم في تأويل آيات الأخبار وملاقاتها بما رأوا من أمور جرت أو ظنوها تجري ، فاذا كانت قد صحت بعض هذه التأويلات فيما يجيء به العلم من أمور راجحة أو حقائق ثابتة يستطاع تأويل القرآن بها فذلك أصح وأولى .

وربما كان عمل بعض تلك الجماعات سراً — كما حدث من اخوان الصفا — وان كان كثير من أقوالهم قد مسّه الخطأ عن قصد أو غير قصد ، الا انهم استطاعوا أن يجمعوا الناس على موائد العلوم في عصرهم ، مهما قدموا في بعض ألوانها رديئاً من الكلام وخليطاً من الأوهام .

ونحن — في عصرنا والعصور التي تلينا — قد تخفى علينا وجوه من سياسة الكلام في الكتاب الحكيم لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام » ولكن تعلقنا بالدراية والاستنباط كفيل بأن يكشف لنا عن البراعة المبثوثة في تضاعيف القرآن. وما من شك في أننا سنظل على الطريق ، والاستمرار فيه كأنه أحد التأويلات لمعاني الوعد بحفظ القرآن في قوله سبحانه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولما كانت الأمة مجمعة على أن المراد بحفظ القرآن حفظه على

المكلفين للعمل به وحراسته من وجوه الغلط والتخليط، لم تصح الحراسة الا أن تبلغ مداها في القوة بتطبيق أدلة العلم على آيات القرآن وقضاياه . وكما كان التواتر شرطاً في تبليغ آيات القرآن وجب أن يظل شرطاً في التأويل العلمي للقرآن،وذلك حتى يمتنع التأويل بمجرد رأي الواحدالذي ربما لم يعرِّج على غير اللفظ . وهذا وان أصاب الحق فقد أخطأ الطريق ، وإصابته إنما هي مجرد رأي ليس عليه شاهد أكيد .

والتخصص العلمي الذي يمتاز به عصرنا يحكم أن تلتقي على التأويل جماعات صالحة من العلماء ، فان المجال الرحب والمتسع البالغ لفهم معاني القرآن واتقاء مواضع الغلط يحكم بأن الغرائب فيه لا يتم فهمها الابادراك أشتات العلوم والفنون حتى يصل الحق الى نصابه ، ويتم معنى مستفاد من معاني التواتر لحفظ القرآن .

دحو الارض

وربما كان من أظهر الامثلة على تطور التأويل ووجوبه، المعاني التي صبوها على كلمة « دحا » في قوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها» فقال من لم يكن قد رسخ علمه في الهيئة : إنه بسطها ، فلما ثبتت كرية الارض ـ بأدلة عصر المأمون في بادية السماوة ـ قال المؤولون : انه جعلها كالبيضة ـ والدحية من اسمائها ـ .

ومع أن في هذا الاشارة الكافية لاتفاق الحقيقة العلمية في شكل الارض ـ الممهد جزئياً والمستدير كلياً ـ مع لفظ القرآن ، فان هذين التأويلين قد صارا في عصر العلم ـ الذي نحن فيه ـ تافهين ، اذ لا بد أن

يكون معنى الدحو أهم من ذلك كله ، خصوصاً وأن الآيـــة في علم التكوين .

واذن فقد وجب أن يصار الى العلم في تفسير الدّحو ، وعدم التقيد بالمألوف القـــديم ، وموجزه أن الارض حينما كانت جزءاً منفصلاً عن الشمس كالنظرية القديمة، أو جزءاً هائماً بذاته في الكون كالنظرية الجديدة، فان عملية تركيزها في فلك الشمس منذ نهاية الأزل كانت بعد خلقها الأول، ثم كانت هذه العملية جعلا لطبقاتها وخلقا لتلافيفها ، حتى أنبتت الطبقة العليا نباتاً ينفخ في جو الارض مادة الحياة الحساسة ـ الأوكسوجين ـ فلما امتلأ بها الغلاف صلحت الأرض من بعده لكل أنواع الحياة .

وكان لا بد أن تمضي الأرض في زمان بهيم حتى تكون كوكباً مستعداً للسكنى . ولا بد أن تكون طبقاته من شكل يثير ـ فيما بعد — سكانه من المخلوقات التي لا بد أن تكون من جنس تكوينه . ولعل في هذا تصديقاً لخلقة آدم من التراب التي أوسع العلماء في شرحها بأنها تدل على ما يتمثل في آدم من شتى طباع الجماد والنبات والحيوان ، بل ومن طباع الفلك كله الذي يعيش فيه .

وقول الله سبحانه « والأرض بعد ذلك دحاها» وهو يدل على ترسيخ الارض هي وغلافها من طبقات دائرة حولها ، لا يمكن تحديد الأزمنة التي مضت في هذا الدحو ، وقدقدرها العلماء بملايين كثيرة من السنين، ولكن مما لا مراء فيه أنها كانت عند الله أزمنة متناهية في القصر لا تحتمل أن تعطف على سابقها في كلام الله بغير الواو ـ وهو حرف واحد منهوك—

غير أن مدى هذه الملايين يكاد يلمح من قوله تعالى « بعد ذلك » فكان تعبير القرآن بهذه البعدية والاشارة يشير الى المـــدى المذهل للحصر من أعداد السنين .

والمذهب الذي يقول بتفسير القرآن بالقرآن يعضد في مجمله هـذه التفاصيل من قوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها » فاذا فسر الدحو باخراج الماء والنبات وقعت المطابقة الأكيدة بين كلمات القرآن وآخر ما وصلت اليه ظنون العلماء .

وفي مثل هذا ما يقضى على تخرص المباعدين بين حقـــائق العلم والقرآن ، ويقضى قضاء أشد على الذين يقولون إن القرآن يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، مستندين في ذلك الى مـــا كان قد التبس على الزمن في بعض الأمور التي لم يكن قد استقر قرارها ، ويقضي كذلك على الذين يخافون أن يقرّبوا بين القرآن والعلم ، مخافة أن تخرج مسائل العلم من الصحة اليوم الى الخطأ غداً ، فيظل الرأي الذي قيل على خطئه، وفي هذا ما يسيء – في نظرهم – الى القرآن .

وقد كان من الخير أن جاءت القضايا العلمية في القرآن كليات غير مفصلة ولا مبسوطة ، وذلك لعلة ، وربما كان جمال الدين الافغاني أحد الأفذاذ الذين أدركوها ، وهو يقول : أثبت العلم كرية الأرض ودورانها ، وثبات الشمس دائرة حول محورها . فهذه الحقيقة مع مـــا يشابهها من الحقائق العلمية لا بد أن تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب أن يجل عن مخالفة العلم الحقيقي ، خصوصاً في الكليات . فاذا لم نرَ في

القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ورجعنا الى التأويل ، اذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود .

ولو جاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية والبرق وما تفعله الكهربائية من الغرائب وغير ذلك لضلت الناس وأعرضت عنه وحسبته كذباً ، لذلك نراه قد جاء بالاشارة الى كل ما هو حادث اليوم ، وما هو يمكن أن يحدث في مستقبل الزمن ، مع مراعاة حقوق الخلق وتقريب الاشياء للاذهان عن طريق النظر وقابلية التفهم .

ومنذ الأوّل رأى أبو الدرداء وابن مسعود أن تفسير القرآن لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر ، وبالغ من بعدهما الباحثون فقالوا : إن لكل آية ستين ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر . ومهما كان القصد أو المبالغة فانهم جميعاً أنشأوا طرقاً واسعة لتمر منها في يسر وسهولة مراكب التأويل .

اشارات القرآن

وكذلك صرح القرآن أحياناً بكليات العلوم وقواعدها ، وذلك اذا لم يصادف انكاراً من النفوس التي نزل عليها ، فاذا صادفه هذا الانكار لجأ الى الاشارة دون التصريح . ولا يقلل من شان هذه القواعد الكلية – حتى في بعض التشريع – أنها لم تجىء بالتفاصيل التي جاءت بها السنّة من بعد ، فانها كانت بمنزلة التفسير والتأويل حتى تكون مثلاً يقتدى به في كشف الغوامض وإظهار الأسرار .

وكذلك ـ فيما بين التصريح والاشـــارة بسبب قبول النفوس أو إنكارها ـ سلك القرآن مسالكه، ففي مثل قوله «وآتوا حقه يوم حصاده» تصريح بقاعدة مالية هي تيسير أداء الحق حين وجوده، مـــع وجوب أدائه. وفي مثل قوله «كانتا رتقا ففتقناهما» إشارة الى نظرية انشقاق الأرض من مجموعة قد تكون هي الشمس أو تكون غيرها، ولم يصرح بها القرآن تصريحه بالقاعدة المالية السابقة، لان الاولى جرت بها العادة، أو لا بد أن تجري بها حياة الناس. أمـــا الثانية فهي من اختصاصات العقول والعلوم، فجاءت بها الاشارة حتى تثار الحقيقة من حولهـــا ويبحث عن الدليل.

وقول القرآن «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» تصريح بقاعـــدة اشتراكية وجب على من يخطر بنفسه في الجهاد أن يشرك معه في مرابحه من الحرب كل الاركان التي تتألف منها الدولة والجماعة، القوي منهـــا والضعيف، والمسيطر منها والمحكوم، فلم تجز القاعدة حرمان أحد من النفع لتتحقق حكمة الاشتراك.

والقاعدة الشهيرة والأخـــيرة في فن الحرب وهي التي تقول: «أبطال الحرب لإبطال الحرب» ـ بفتح الهمزة في الأولى وكسرها في الثانية ـ مقررة في قول القرآن من قبل: «ترهبون به عدو الله وعدوكم» من آية الأمر بالإعداد للحرب، وفيها التصريح بان إرصـــاد القوة على مطلق المعنى إنمـــا هو للارهاب، وليس لسفك الدمـاء، وهو أفعل الوسائل لمنع الحروب.

وكذلك اشتمل القرآن على أصول صريحة في تدبير الممالك وأصول الحكم ووظائف الرؤساء ، أما العلوم والفنون فقد ألمح اليها في إشارات ــ ولا سيما لما لم يكن قد كشف أمره وبانت أسراره ــ .

ولعل من أروع ما يهمنا اليوم ما وصل اليه البحث من العلوم التقنية « قصة الراديو والتلفزيون وقصة الطيران » ولعله من الخير أن يساق فيها رأي رجل كجمال الدين الأفغاني فان من حقه أن يسجل له هذا السبق ، وإن كان قد تعلق به بعض الالتباس .

فبعد أن استنبط جمال الدين من قصة سليمان نظام تدبير الملك في بسط رائع الحجة ، أخذ يوضح الاشارات العلمية في هذه القصة بتبيين ما كان لدى سليمان النبي من القوى ، وما تسخر له من رياح يمتطيها على شكل الطائرات التي هي ــ كما يقال في عصرنا ــ أسرع من الصوت ، وما تقدر عليه هذه القوى من سرعة نقل الاخبار والاشياء بأسرع من اللاسلكي ــ مثلاً ــ كما يقول الافغاني في وقته الذي رافق أوائل المخترعات الاخيرة .

وقد استطاع الافغاني في مهارة من الفهم وسوق الحجة أن يصل بين هذه الاشارات القرآنية وما وصل اليه العلم من جديد فقال :

وجاء في ذلك القصص أن تلك الواسطة التي توفرت لسليمان ، وبها نقل عرس بلقيس من سبأ الى القدس قبل أن يرتد اليه طرفه ، جاءت صريحة بالعمل مبهمة عن الآلة العاملة ، اذ لم يكن بالامكان للقرآن أن يصرح بشكلها أو باسمها لبعد ذلك عن الأذهان في ذلك الحين . وهكذا العلم لا يعجز عن احداث ما نظنه اليوم مستحيلاً وابرازه مرئياً .

ثم قال الافغاني :

وفي قصة الهدهد اشارة دقيقة جداً ، وهي أنه عندما أراد سليمان استحضار عرش بلقيس ، استعرض ما عنده من وسائل النقل السريعة وأربابها واستبرزهم ما عندهم من ذلك ، فقال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، فرأى سليمان ذلك بطيئاً فلم يرق له ، فتقدم عند ذلك غيره ، وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك . فعلمنا من تلك الاشارة ـ أو الصراحة ـ أن واسطة نقل الاشياء بسرعة لا يتخيلها وهمنا اليوم ـ أي في أيام الأفغاني ـ كانت علماً مدوناً في كتاب ، وله أرباب ذوو رسوخ فيه وتمكن منه وقدرة عليه .

استقرار الصواب

ثم مضى جمال الدين في بعض الالتباس حين أسرع فظن أنه عمل الأرواح قائلاً : ان هذا العلم ـ يعني علم الأرواح ـ اذا لم يتوقف البحث فيه ، بل سار متقدماً بالتجارب والتمحيص ، لا يبعد أن يأتينا من المدهشات والغرائب بما لم يكن بالحسبان ، بل ربما يحقق لنا ما سبق القرآن بالاشارة اليه .

وجاوز الافغاني بذلك القول كيان المعجزة ، وذهب الى أن مقدرة الارواح في التنويم يضرب بها الامثال ، ولكن المحققين من بعده كشفوا بعض أسرار التنويم ورأوا أنه مقدرة من المنوم لا النائم ، اذ المنوم ممن لهم موهبة التكلم من عضلات البطون دون أن تتحرك الشفاه .

وقد أخبر الدكتور محفوظ في كتابه « حياة طبيب » بوقوع ذلك أمامه من أحد من ادّعوا علم التنويم . بل أخبر أنه سمع صوتاً لسيدة كان يجري لها جراحة وكأن أحداً يتكلم من خارج الغرفة، وقد أجرت أمامه تجارب أطلقت فيها صوتها من بطنها بحيث تسمع من الجهة التي تريد أن يظن السامعون أنه صادر منها . فحين استطرد الافغاني في أسرار التنويم والروح قال قولته ولكنه كان مجتهداً ، والمجتهد له أجر إن أخطأ وأجران إن أصاب »

ومع أن قصة الهدهد محسوبة لسليمان في معجزاته فقد جاءت حقائق الكشف العلمي اليوم بقوة الآلة المصنوعة ، فكانت أكبر دلالة على صحة ما أشارت اليه قصة سليمان ، ولم يصر لأحد بعد ما رأى الناس جميعاً من تقدم الطيران ونقل الصور والاصوات والاشياء أن يباعد بين قصة السرعة في هذه القصة وحقائق العلم التي أصبحت مثلاً حاضراً ولوناً سافراً .

ولم يروا عيباً في التأويل أن يتطور كما تطورت معاني الدحو ، ولا أن يكون مجملاً ثم يأتي تفصيله بعد أن تكشف أسراره وتعرف خباياه.

والقرآن الذي أجمل الكليات يفسح للتأويل أن يذهب مذاهبه من غير انحراف أو قصد الى السفه أو الضلال ، حتى اذا أسفرت الحقائق عن نفسها واستقرت ، كفت العقول عنها وجفت الأقلام منها ، وذلك حين تنقلها من مكان التأويل الى مستقر التفسير .

ومما لا ريب فيه أن العصر الحاضر والعصور المقبلة كفيلة بايضاح

ما في القرآن من قضايا العلم الصادقة متى تدبر المؤمنون ـ والعلماء منهم خاصة ـ معاني القرآن وتفهموهـــا بروح العلم نفسه ، تلك الروح التي لا تصد عن الايمان بما هي في سبيله من البحث والتمحيص .

وكما بات مؤسفاً أن يعاد القول في التفاسير ـ بعد عصر الذرة ـ بأن العناصر الأولية هي التراب والماء والنار والهواء ، فقد بات كذلك مؤسفاً ـ وكما قال الافغاني ـ حصر معجزات القرآن في اللغة والبيان ، وأن يقف المفسرون والمؤلفون هائمين ببعض الحروف غائصـــين في هوة لا يُهتدَى فيها الى قبس مما في القرآن من منافع الدنيا والآخرة ،وقد اشتمل القرآن على أتم وجوهها .

وليس بقادر على أن يخرج من هذه الهوة الا العلماء الذين أنار الله بصائرهم ليكشفوا للجيل الحاضر والاجيال القادمة عن حقائق القرآن وغوامضه ، ويبينوا عن أسراره وخفاياه .

والقرآن الباقي حتى القيامة انما هو باق بهذه القوة، ومتى أثير ظهرت منافعه واطمأنت غرائبه ، وكما قال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن . وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً .

فاذا لم يثيروه فلا عتب عليه ولا ذنب ، وانمـــا العتب والذنب على الواقفين عند شواطئه مكتفين بما يلقى البحر اليهم من أمواج وما يـملأ أسماعهم من زئير .

وبنو آدم جميعاً ، وهم من أنزل اليهم الكتاب ـ لانـــه بلاغ للناس ـ

مطالبون دائماً أن يكشفوا عن حقائقه ، ويفصلوا إشـــاراته ، ويأتوا بالدليـــل .

وقد أحسن صاحب البرهان في تقريره أن التدبر والتفكر هو أصل الوقوف على معاني القرآن ، وقد رأى من عـــدم الوصول الى معاني الحقيقة واسرار العلم الاعتماد على أقوال من اكتفوا بالعلم الظـــاهر وحصروا رجوعهم الى معقوله . ورأى ذلـــك من الحجب والموانع ، وأوجب أن يترك المحقق المعهود من علمه ومعقوله ، ويفتقر الى التفهم وقوة العلم، وليكون من الراسخين فيه الذين يقول الله فيهم «ومـــا يعلم تأويله الا الله والراسخون في للعلم » . والله يقول الحق وهو يهـــدي السبيل .

* * *

المـاء والحيـاة

مقالة القرآن — جوهر الماء
قيام الحيـاة — التكييف للبقاء
الحياة والطهارة — المياه الابدية

مقالة القرآن

أشار الكتاب المفصل في عدد من آياته الى النّسَب الاكيد بين المـاء والحياة في شتى المظاهر الواقعة أو المتخيلة والشاهدة أو الغائبة . ومهما كان الكتاب الحكيم قد أراد بما أورده الاستذكار والاستعبار ، فانه أشار الى حقيقة أزلية في سَوْقه لقضية هذا النسب ، ولو أنه لم يفصل ماهية الماء وسرّه مثل كثير من الماهيـات والاسرار الأخرى التي لم تزل مغلقة الأبواب أمام عين الانسان وعلمه أو ظنه وحدسه .

وقول الله سبحانه « وجعلنا من الماء كل شيء حي » إنما كان تفصيلا لمنطق الحياة الذي قذف بالخلائق كلها الى أصل وجودها ، وقذف بالمجموعات البشرية لتسكن في الواحـات وعلى الدّارات والبحيرات وفي أحواض

الانهار وعلى شواطىء البحار. وهو المنطق الذي أعان الحضارة الى ما بلغته اليوم والى ما تبلغه غداً ، بل هو المنطق ذاته الذي يتطلبه الانسان ويريد أن يطمئن الى وجوده أو ايجاده في الكواكب التي يشد اليوم رحاله اليها. فاذا لم يستطع أن يجد مروجاً خضراء ، أو يعصر من صخورها الماء ، ارتد ناكصاً ورجع حسيراً.

والانسان على أرضه ذاتها أو على غيرها – كما يتصور غده – يخطىء ظنه ويرتطم في غير آماله اذا حسب أن رقيه ليس رهناً الا بضوضاء الصناعة وغبارها المركوم في أجواء المدن والقرى ، دون أن يحسب للماء الذي هو أصل حياته حسابه من الاستنباط والتنقية وتنظيم الانسكاب واحياء الميت من التراب.

ولم تكن مقالة القرآن في الماء ايضاً الا ضماناً من الخلاق القدير بأن يصل الماء في شتى صوره الى كل حي سواء أكان في الماء نفسه أو على البر ، وفي أقصى صحرائه أو بطون صخوره ، أو في الهواء وعلى قممه وأغواره ، فمن حيث وجد حي وسمع نبض ورئى نمو أو تغير ، وجب أن يعرف – حتى من غير بحث ولا استقصاء – أن الله حمل اليه الماء – وسواء أكان الماء لم يزل سائلاً ، أو صار أثقل أو أخف من سيولة ميزانه ، الا أنه ماء من شأنه أن توجد معه الحياة.

ولم يعد القول في حاجة لأن يستفيض في ملازمة هذه النسبة في غير الأرض ، إذ يبحث علماء الفضاء عن الماء واستنباطه قبل وصولهم واستقرارهم مدة طويلة أو قصيرة ، إذ بغيره يكون الموت الأكيد ،

ولذا فان العلم يجعل من قضية الماء والحياة قصده الأمثل وصديقه الأول ، والصديق قبل الطريق والجار قبل الدار .

واذا كانت كشوف العلم المفصلة في جوهر الماء قد تأخرت عما جاء به القرآن في مجملاته ، فانه لا ينبغي أن يباعد أحد بين القرآن والعلم، بحجة أن القرآن لم يرسم الخطوط الموصلة للكشوف ، ولم يحسب النسب الدقيقة للبحوث ، فان القرآن ترك للعلم مجاله في التخطيط والتنسيب، بعد أن أشار الى الحقائق العلمية إشارات مجملة ، من شأن الهمم أن تثور وراءها ، ومن طبع العقول أن تنبعث باحثة عنها ، لان شأن القرآن أن يتخطى هذا الاحصاء الى آثار النفع والضر ، ليرتب عليها تشريعاته من الأمر أو المنع حتى تبلغ رسالته جميع الناس .

على أن القرآن ـ حين لم يفصّل النسب بين جوهر الماء والحياة تفصيلاً ظاهراً ـ مسّ بقوله كل ما تصور الانسان وجوده أو غاب عن شهوده ، في جوهره وأعراضه وأنواعه للحكمة المرجوة منه والسر الذي وجد له ، ليحققه في هذا الكون الماثل ثم في الكون الذي يخلفه ويليه . فتحدث عنه جوهراً ، وتحدث عنه أعراضاً ظاهرة معتدلة أو جائرة في كل لجة أو مخاضة وتيار أو غور وحبات سابحة أو هابطة ، ثم أشار اليه حين غاب عن البصر والظن فيما لا يمكن أن تراه الأبصار أو تتطاول اليه الظنون كما في صلب الاحجار بل وفي عناصر النار .

أستوعب القرآن مظاهر المياه كلها على سطح الارض وفي باطنها

وحول غلافها ، وحين فعلت الحيـاة في النبـات والشجر والأزهار والثمرات والأبدان ، ثم لم يدع القول عنها اذا اعتدلت في ماء أمطار ومسابل عيون وأنهار ، أو جارت في غور أو طوفان ، واذا ارتدت خيالا ظالما في سراب أو صديداً و مُهْلا في عذاب .

كل ذلك لم يدع القرآن التنبيه اليه ، ولم يترك الحديث في تفصيله ، ثم لم يدع المياه الدافقة من الأصلاب إذ كانت أصل الكثرة والولاد ، وأعلق المياه نسبة بالانسان فأكثر من الاشارة اليها ، وكأنما ينبه القرآن العقول الى أن هذا النوع الدافق أحوج الى البحث عنه ، لمعرفة النسب المتغيرة فيه عن كل أعراض الماء لتخليق الدواب وتحقيق الانساب .

جوهر المـاء

ولم يدع القرآن جوهر الماء دون أن ينبه الى وحدة جنسه وتحديد ذاته ، وانما يتنوع بأمور تعرض له زائدة عن جوهره كالحرارة والبرودة والعذوبة والملوحة والغلظ والرقة ، وهي التي تغير آثاره ومذاقاتـــه . أما جوهره فقد التقى عنده كشف العلم عن سره بقوله سبحانه « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » .

وقد مس الصوفية من بعد جوهر الماء التماساً من هذه الآية فرأوا اختلاف الطعوم والروائح والالوان ولا سيما في الجنس الواحـــد من النبات اذا نبت في مغرس واحد ، رأوه غير راجع الى جنس التربة أو النواة وانما هو دلالة على الله ولطفه في اخراج المختلف بجوهر الماء الواحد من غير خضوع الى قياس .

وكذلك لم يفت علماء المسلمين أن يقاربوا الكلام في أكثر من أعراض الماء ، ومن ذلك ما قاله صاحب البرهان : ان الله سبحانه قارب بين الماء والحياة ، فجعلهما أمرين متشابهين في قوله سبحـانه « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السماء .. »

ووجه الشبه أمران :

أحدهما : أن الماء اذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت ، وان أخذت منه قدر الحاجة انتفعت به ، فكذلك الدنيا ــ وقد نسى الزركشي نسبة التضرر ايضاً الى الأخذ منه بأقل من الحاجة فلم يذكرها في كتابه ، وربما تركها للقياس على ما ذكر ، أو يستكمل فهم القارىء التقسيم .

وثانيهما : أن الماء اذا أطبقت كفك عليه لتحفظه لم يحصل فيه شيء ، فكذلك الدنيا .

ولكن ذلك كله ــ وغير معه ــ لم يكن الا مقاربة بعيدة من جوهر الماء والنسب اللازم بينه وبين الحياة التي قضت به الخلقة ونص على قضيته القرآن ، فكان على العلم أن ينطلق ليصل الى معرفة ما هو خليق أن يسمى شيئاً حيا ، ثم ينظر الى ما يجري فيه من نسب الماء وفعله ، فاذا بلغها فقد أدرك أمراً خطيراً في المخلوق الحي ، ولا يعيب العلم بعد ذلك أن لا يقدر على معرفة السر كله ، فان الاسرار لم تزل من المغاليق ، مهما سطعت للعلم أشعة وامتدت له أضواء .

ولم يكن قوله سبحانه « وجعلنا من الماء كل شيء حي » مجرد خبر يلقى فانه من البداهة . والبديهة ــ حتى في غير الانسان ... تدرك ذلك

أو نسعى اليه لتدركه . وكذلك لم يكن قوله سبحانه « أفرأيتم الماء الذي تشربون .. » مجرد توجيه النظر الى ماء السحب القراح فاننا نراه ونعرفه بديهة ، ولكنه كان توجيه نظر ودعوة تأمل حتى يدرك العقل والعلم سر المعجزة وكنه الخليقة .

وكأنما ألقى القرآن بهذه الدعوة الى الناس جميعاً ومنهم خصومه ـ والدعوة إنما هي للخصوم اكثر منها للاصدقاء ـ ليتحققوا في مصانعهم سر القول وكنه السر ، ثم ليكون الكشف العلمي لجوهر الماء باباً جديداً لأعجاز في القرآن جديد .

ولم يعد خافياً أن سر تكوين الماء ، قد كشف ، فعرف أن جزئي الماء ـ كما قالوا ـ من ثلاث ذرات ، وبعض هذه الذرات حارق وبعضها محترق ، فاذا تقابلت واتحدت ـ في حاجة وتضوّر الى الاتحاد ـ تحولت الى جزئي ماء لا هو حارق ولا هو محترق ، ولكنه يفعل الحياة . أما كيف تتحد هذه الذرات في الجزيء فانه لم يزل سراً في ضمير السر ، وكأنه موكول لأمر الله سبحانه الذي يشير اليه في قوله « كن فيكن » ، الأمر الذي يعجز العلم ويحير الألباب .

قيام الحياة

وحين ينصرف شطر الى الارض من قول الله سبحانه « وجعلنا من الماء كل شيء حي » تكون الاشارة الى الكوكب كله مع غلافه ثم الى أجزائه الكبرى ثم الى كل كائن حي عليه وفيه ، مهما تناهى في الصغر واختفى عن العين . ومهما صدقت مقالة علماء التكوين بأن الحياة

بدأت في المحيط أو بدأت على الطين : فان القرآن والعلم يدلان معاً على أن الأرض كلها وكل الأحياء التي تعمر بحرها وبرها وجوها تسبح في الماء.

ولجة الماء التي تغطي ثلاثة أرباع الكوكب لم تكن الدهشة لكونها من ملح أجاج تقتدر على أن تحتفظ بعناصر الحياة فلا تذيبها كما يذيبها الماء العذب ، ولكن لكونها ـ مع ذلك ـ بالغة المدى في الاتساع حيث تكون فيها القدرة على بعث التجديد في أنحاء الكوكب كله ، دون أن تركد أو تأسن ، فينفث الماء الراكد الآسن فضلات العطن والعفونة التي تسمم الخلايا وتبيد الاحياء .

وصفة الدوام التي اكتسبتها اللجة الواسعة الماء الملح في مداهـــا العريض ، كان من شأنها أن تكون داراً للحلية المخلقة فيها والتي أشار اليها القرآن « وتستخرجون منه حلية تلبسونها » وقد قدر لهذه الحلية أن لا تولد في ماء عذب ، فانه لا يمر الا تياراً او يتفجر عيوناً او ينزل غيوثاً آونة ثم ينقطع أو يفيض ، فانعدمت منه الحلية اذ انعدمت فيه صفة الدوام .

كما أن لجة المـــاء الملح أقامت حياة من عمـــل مزدهر لا تطيقه اليابسة . وليس الشأن في مجرى السفن ومرساها ولا لأن الماء أكثر من البر والهواء والفضاء أمناً وراحة ، ولكن ايضاً لما تحويه خصلة الماء من الليونة ومقدرة الكثافة على حمل مئونات أثقل من الجبال ، ولم يكن للناس أنفع ولا أيسر من هـذا المرفق الذي جنّبهم بوائق البوار ، والله سبحانه يقول « وترى الفلك مواخر فيه » .

أما ما كبر أو دق من الاحياء على هذا الكوكب ، فانه وكل مـــا

بداخله من خلايا تسبح في ماء . والجهاز العصبي الذي يقدّر كمية الماء التي يحتاجها الكائن الحي عندما يهيجه العطش إنما هو دعوة لاختزان الماء من الاجسام اختزاناً يجري في دقة تحير العقول .

وأروع ما يثير الدهشة في كشوف العلماء ما قالوه من أن السائل الذي يجري في خلايا التركيب الدموي للانسان من حيث الأملاح الذائبة فيه يشبه الى أبعد الحدود تركيب ماء المحيط . وكأنما احتفظ الانسان في دمه لا بذكريات نشأته في المحيط – في قول علماء التطوير – وحسب ، بل احتفظ بكيانه الاول كله والنسب التي كان عليها ، وان كانت قد خفت قليلاً وتغيرت ببعدها عن هذا النقيع الأجاج .

وكأنما تقوم في الارض وأجزائها حياة متشابهة الأشكال متقاربة النسب مترابطة الاطراف ، ولا تقوم هذه الحياة – في شكلها العام أو في أجزائها – معتدلة فيها الا باعتدال الماء الذي تختلف مقادير الحاجة اليه في الأشياء ، فاذا زاد قدره في شيء لا يحتاجه طرحه عن نفسه ، واذا قل عما يطلبه سعى وراءه والتهب عطشاً اليه ، وهكذا حتى يستقر الجوهر أو يفسد الكيان .

ومن غرائب الخلقة الحكيمة ظهور لون الماء عند انعدامه ، فيبدو ماء متيقناً في النظر والظن ، ولكنه سراب يخدع العين ، وكأنه نذير من السماء بالبعد عن المظنة واجتناب الخدعة ، وقد حذر القرآن من الأعمال التي تشبهه – كعادة من تعودوا رؤية السراب أنلا ينخدعوا اذا رأوه – الا أن يعتمدوا على الله مهما خاب بهم الظن وضل الطريق،

فان قدرته لا تنعدم ووجوده لا يغيب ، حتى في مواضع الخيبة ومواقع السراب . وجل شأنه اذ يقول .. « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

التكيف للبقاء

وليست على الأرض حياة أعظم من حياة الإنسان المستخلف عليها، فهي الذروة في هذه الحياة . وحياته هذه لها شأن كل يوم فهي في تجدد دائم وتغير مستمر متكيف مع البيئة كلها في كل لحظة دون أن يشعر أو يدري ، ومع هذا التجدد والاستمرار في التغير لا تعجز أن تدفع عنها التفكك والهلاك .

وذلك التغير يحدث في كل خلية من جسم الإنسان ظاهرة أو باطنة ، وفي جلده وعظامه وعضلاته وعروقه ، فهي كلها دائبة التحول ، وكل خلية تحدد نسبة تحولها مع النسب الاخرى ، لتظل النسبة العامة في التحول محافظة على شكل الحي ومناسيبه التي تنمو مع الزمن وتكبر ، أو ترجع فيه عن النمو والكبر والاتساع .

غير ان علماء الطبيعة فرقوا بين ما يتبدل في بطء من الانسان وما يتبدل منه في سرعة، ورأوا أن نسبة ما يتبدل بطيئاً لا تكاد تجاوز جزءين من مائة جزء من أجزائه كلها ، وهما يتغيران في بطء ثقيل لانهما من عنصر الحديد الذي يبنى عليه هيكل الانسان ، أما بقية النسبة الضخمة من الاجزاء المائة فانها تتجدد أو تستبدل على مراحل الزمن اليومي دون

ادراك ، وهي كلها عناصر وأمشاج تسبح في تيارات نهرية دون وقوف أو انقطاع .

ومن غير أن نوغل في دقائق العلم وأجزاء التكوين وعناصره فنبتعد عما نحن بسبيله من عموم القول عن الماء والحياة ، فانهم يقولون : إن الحياة ، قد اختارت الماء ركوبة لها ، لان العناصر ومركبات الغذاء والعقاقير تذوب فيه أكثر مما تذوب في غيره ، دون أن تتأثر جزئياتها تأثراً ملحوظاً في اثناء عملية الذوبان .

ثم إن الماء يهب للانسجة الحية حرية التفاعل معه ومع العناصر السابحة على سطوحه وأغواره ، في ظروف حرارة نوعية له لا تتوفر نوعيتها في سائل آخر غيره ، وهو إذا مر في الاعضاء خفض الحار ونفخ الحرارة في البارد فعدل حرارة الجسم كلها حتى يستطيع استقبال حياة موفورة الصحة مستمرأة النعيم .

ولعلنا ــ من غير روية ــ نكره العرق ، ولا سيما إذا دفقته الحمى أو القيظ الشديد ، ولكننا لو علمنا ان جهاز الجسم المشترك يتخلص من الماء الزائد وحرارته الكامنة فيه بتبخيره عرقاً وقذفه زفيراً أو خوارج أخرى بفعل الكليتين ــ إننا لو علمنا ذلك لأدركنا الحكمة في تخليص الجسم من كروبه ، ثم لعلنا نحس بعظمة الابداع في تحوير أوراق النبات إبراً في الصحراء وأطباقاً عريضة في الماء ، لاختلاف ما ركب فيهما من قدرة على تمثيل الماء .

ويقولون : إن العرق بفائض الماء لو كان من سائل آخر لما أدى

ذلك السائل وظيفته التكييف بالتبريد الذي يحدث في بطء مناسب لا يفجأ الجسم بالنكبة إذا أسرع لخفته ، ولا يصيبه إذا أبطأ لثقله .

والتكيّف للحياة والبقاء لا يكون إلا بأن تسيل الأودية بقدَرها ، بغير زيادة تهدد بالإغراق ، وبغير نقص يهلك بالإعطاش ، فإذا زاد السيل احتمل ما يربو إذ لا يحمل الرابي إلا السيل، وهذا كله يشير إليه الكتاب الحكيم قائلاً : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا » .

الحياة والطهارة

كل ذلك الذي بسطنا القول فيه بعض البسط ـ مستعينين بما يعرضه بعض رجالنا الأعلام في مؤلفاتهم الواسعة الموجزة ـ إنما هو واقع الحياة في ظاهرها وخافيها . ولكن لما كانت الأديان تنقل معاني الحياة إلى ما هو أرفع من واقعها فقد تصور الدين الاسلامي النجاسة موتاً والطهارة منها بالماء حياة .

وكذلك أوجب الدين التطهر بالماء من كل حدث ، وخص بالتطهير أعضاء من الانسان بعضها يتعرض للنجاسة وبعضها يتعرض للعمل الدائم فتتعلق به بعض الشبهات من ظنة التماسه للذنوب والشهوات ، وذلك كالوجوه والأيدي والأقدام .

وحفاظاً على القاعدة نفسها أمر الاسلام بغسل الميت دون الشهيد ، لأن الشهيد حي لم يمت ، فلما لم يلحقه الموت لم يغسل جسده ، لئلا

تضطرب القاعدة التي حسب فيها التقاء الماء بالحياة ، وهذه فريدة من فرائد الاسلام .

كما كان من الحفاظ على القاعدة مكافأة المتوضىء بأن تبلغ حلية جزائه في الآخرة حيث يبلغ من أعضائه ماء الوضوء ويسبغ عليه .

وقد خرج الإسلام بالمضطر عن الماء إلى التراب والصعيد الطيب ـ حيث تحرى الفقهاء أماكنه وصفاته ـ وقد تحيرت العقول في حكمته ، ثم قال بعضهم إنه العنصر الثاني في خلق الانسان وتكوينه ، ثم جاء العلم اليوم محاولاً أن يلفت النظر إلى استنباط الماء من الصخور والأتربة الموجودة على سطوح بعض الكواكب كالقمر والزهرة والمريخ للمعيشة به دون نقله من الأرض حيث يكلف نقله غالياً . وقد قيل إنهم استنبطوه من صخور كالرخام ظنوها ساقطة من القمر باصطدام الشهب به . وكذلك يظهر العلم الحكمة أو بعضها في التيمم بالتراب لتصور وجود الماء أو مركباته به ، عند انعدام الماء ، أو لأن الحياة بدأت من الطين الذي هو تراب وماء ، فكان التطهر بأحدهما التماساً للحياة من أحد طرفيها .

وما حدث من الاسلام من قبل كان حكماً ، أمّا ما حدث اليوم من العلم فكان كشفاً ، والحقيقة واحدة من قبل ومن بعد . وقد استكنّت الحقيقة في الحكم واستعلنت في الكشف ، ولكنها حين كانت حكماً كانت لكل الناس ، وحين صارت كشفاً صارت للعلماء ، والقرآن قال الحقيقة مجملة لعموم الناس ، لأنهم لا يفهمون إلا مجملاً ، والعلم أثبتها

مفصلة لأفهام الخاصة لأنها لا تقبل إلا ما جاء مفصلاً .

ولقد ارتقت فكرة الطهارة الشبيهة بالحياة رقياً لا مثيل له حين ارتقت إلى الماء ذاته إذا صار نجساً أو ملوثاً فلحقه حكم الميت ـ أو ليس الماء شيئاً ؟ ـ فالماء المقيد الذي أفسده اللون أو غيرته الرائحة أو لامسته النجاسة يتطهر ويحيا بالماء المطلق ما لم يكن قد صار كله محرماً. ولا عبرة بعذوبته أو ملوحته ، فالبحر لا ينجس مــــاؤه إذ لا يفسد لصفتي الكثرة والدوام . وكأن الماء في هذا شيء إذا مات يحيى بالماء ، فيتحقق فيه قوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

والماء كذلك في حكم الميت إذا طردت مادة الحيـاة النقية منه ـ الأوكسجين ـ وقد تنبه الإسلام لذلك وحث على تعلمه والتأدب بـه فمنع رسول الله ﷺ التنفس في الإناء يكون به ماء للشرب أو طعـام للأكل ، وقد ظنوا ذلك من باب التأدب لا غيره ، ولكنه كان أدباً من ورائه علم أكيد .

وكان التنفس في الآنية الساخنة لتبرد عادة الأقوام . وقـد اتخذ سقراط من قبل في حواره لتلاميذه نفث الزفير في اليد مثلاً لاستقرار الزفير على درجة ثابتة من الحرارة ، ولم يتخذه مثلاً إلا والناس جميعاً يتخذونها عادة لتبريد الساخن وتسخين البارد ، فمنع هذه العادة الإسلام إذا كانت على الشراب أو الطعام ، ولو أن بعض الفلاسفة كان قـــد ضربها مثلاً لتقرير حكم من الأحكام .

واللهفة على الماء للحياة ، والإلحاح في استدراره إذا امتنـــع بأداة

الدعاء والصلاة ، طلباً في استمرار الحياة أمرٌ أوجبه الإسلام ، وإنه لقريب أن تمطر السماء ؟ أو ليس المـــاء في غلافها كما هو في أحواضها وآبارها ؟ وضمان الحياة للماء أمر قد تؤمر به الرياح والسحب كما تؤمر به الغيوث والأمطار ؟ « وإنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

المياه الأبدية

يقول بعض الفقهاء : إن مياه الدنيا لا تبلغ في القياس إلى أمواه الآخرة إلا كما يدخل الإنسان أصبعه في اليم ، فما يعلق بأصبعه هـــو مثال الدنيا .

وقد أخبر الدين بمياه الغيب في الآخرة بما لا بد أن يتحقق ، وإنما كان من المحال أن يكشف لنا في حياتنا ما أخبر به ، لأننا عمي في دنيانا لا نستطيع أن نعلم حقائق الغيوب إلا عن طريق أسماعنا ، حتى إذا رفع الحجاب تبين لنا الحق ، كما يتبين الوصف على حقيقته للأعمى الذي سمعه ، فإذا أبصر رآه كما سمعه على سواء .

ولعل أسرار الحقائق التي كنا نسمع بها دون أن نراها ثم كشفها العلم لأبصارنا بعد بصائرنا يكون دليلاً على غيب الآخرة الذي نسمعـه دون أن نراه ، وأن ما يكون حكماً سيصير علماً ، بل انـه من أصدق الأدلة على صدق ما أنبأ به الغيب المستور .

والماء غدا من حاجات الحياة الأبدية لتصدق القضية العامة الجامعة في قوله سبحانه « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

ومن الحوض إلى أنهار الجنة الجارية أبداً على الدوام ، وعيونها ورحائقها وأمزجتها المصفّاة ستكون الحياة للجنات والأحياء فوقها ، وقد ورد كله في القرآن مفصلاً .

وليست الروعة في التفصيل وحده ، ولكنها في القاعدة التي جاء بها القرآن ، ولم يجعل منها استثناء لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فكان ذلك منصرفاً إلى الحياة التي تنفد والحياة التي تبقى .

وبقدر ما بين الحياتين من فروق تكون الحاجة إلى الماء والجوهر الذي يكون منه ، والأعراض التي تصفه وتبين عنه في مثل قول القرآن « وأنهار من ماء غير آسن » وقوله « كان مزاجها كافورا » وقوله « عيناً فيها تسمى سلسبيلا » وقوله « يسقون من رحيق مختوم » .

وقد بان الفرق البعيد بين الاعتدال والانحراف في الماء من لهفة أهل النار على ما أفيض على أهل الجنة منه ، وعلى سعة الهوة بين المياه التي عندهم من صديد متجرع لا تسيغه الأفواه ، أو مهل يشوي الوجوه والشفاه ، أو حميم يمزق الأحشاء ويقطع الأمعاء .

وهكذا ارتد ماء الجحيم عن اعتداله فظلت قاعدة انحراف الحياة من انحراف الماء قائمة حتى في الآخرة ، باقية بعد الفانية في الباقية .

وصدق الله العظيم .

* * *

كُنوز الجِبال

الماء والحياة – مقالات العلماء
الأشباه والنظائر – يد القدرة
مهابط الوحي – الآيات والنذر

الماء والحياة

قدّر لي أن أذهب في مقالي السابق إلى الماء والحياة وإلى الصلة بينهما في كل أدوار الحياة والحضارة وأحوال الأبد الممتد إلى ما لا ينتهي . وكان الكشف العلمي عن خلية الماء ولجته التي تغطي ثلاثة أرباع الأرض ، وتتخلل غلافها مثبتاً لهذه الصلة في حياتنا الدنيا ، ولما جاء به الخبر عن المياه الأبدية في الحياة الأخرى .

وكان لا بد من الذهاب وراء كثير من صور الماء العذب وهو يهبط نقياً مصفّى أو ثلجاً متناثراً على رؤوس الجبال وسفوحها ، حتى إذا ابتلت إسفنجتها وشبعت من الماء أخذت تسيح منه على السفوح

والوديان وإلى الأنهار والعيون ، ولولا أن هذه الجبال في أماكنها وعلى هيئتها لما قام تدبير المطر كما قام ولا استقام .

هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة بلا ترتيب ولا نظام فيحسبها الغافل فضلاً لا حاجة إليه ، كان من حكمة خلقها هكذا أن حفظت ماء الشتاء للصيف ، وأهالت مع الأمطار جوانب من ترابها تكسو البسائط والوديان ودالات الأنهار وجزائر البحار خصباً دائماً وحضارة نامية ، وكأنك لا ترتقي في نهر ولا وادٍ إلا أفضى بك إلى جبل ، فأما العيون فإنها لا توجد البتة إلا بالقرب من الجبال ، وكذلك ما يستنبط من القنّى وما يجري مجراها .

وليس هذا من كنوز الجبال وحسب ، بل إن بالجبال متاع الحياة والأحياء ، كما قضى به القرآن في جملة من الأشباه والنظائر المنتظمة في آيات متفرقة منه ، ثم جاءت الكشوف العلمية أمس واليوم مثبتة ما جاء به القرآن من قضية الجبال والحياة بما لا يدع للشك منفذاً في أن القرآن إنما قصد علماً ثابتاً ، ومهما كان القرآن قد ساقها في جملة أشكال من اللغة البليغة فانه لم يقصر إعجازه على الشكل اللغوي الذي لا يثبت على قياس، بل قصد إلى الإعجاز العلمي لأنه ثابت القياس مستقيم البرهان .

والجبال ــ كما أخبر القرآن عنها ــ لا تثبت للحياة على كوكبنا بغيرها قَدم ، ولا يستقر لها قرار ، ولا تدور للحياة رحى .. ومن ثم فلا يصح أن تكون هذه القضية مهملة القيمة والإعجاز في مثل قوله

ـ سبحانه ـ « والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم » ، بينما يكون الإعجاز في كونها جملة اسمية أخبر عنها بفعل ، واستكملت الجملة علتها ؛ إذ هي كلام لا يطرد قياس بلاغته ، بينما تطرد الحقيقة العلمية اطراداً لا ينكسر ، وهي أن المتاع من إرساء الجبال وانتصابها في تعاريج وأُموتٍ ، فإذا لم ترس أو ذهبت تعاريجها وأُموتُها زالت الحياة .

مقالات العلماء

وقد أوعب علماء الهيئة وعلماء الطبقات ، وعلماء الدين ـ أوعبوا القول ـ قديماً وحديثاً ـ في الجبال ، وهو كلام منثور عندنا ـ نحن العرب ـ في أمثال ما كتبه قديماً ثابت بن قرة في مقاله عن منافع الجبال، وما كتبه الجاحظ في الخلق والإعتبار ، وما كتبه أبو حيان التوحيدي ومسكويه في الهوامل والشوامل ، وما كتبه القزويني في عجائب المخلوقات ، وفي أمثال ما كتبه حديثاً كل علمائنا الأحياء في الهيئة والطبقات والمعادن . وفي أمثال ما كتبه العلماء من غير العرب ، وربما كان هؤلاء أكثر دقة وأوسع استيعاباً ، ولا سيا ما كتبوه عن الجبال في العصر الحديث .

وقد سرد الجاحظ منافع الجبال في أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها لمن يحتاج في القيظ إليه ، ويذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام ، وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل . ويكون فيها

كهوف ومعاقل للوحش من السباع والعادية ، وتتخذ فيها الحصون والقلاع المنيعة لتتحرز من العدو ، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء .. ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر ، وعسى أن يكون فيها خلال أخرى لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه المحيط .

ثم قال الجاحظ :

إن المطر جعل ينحدر على السهل من الجبال ليغشى ما غلظ منها وارتفع فيرويه ، ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ولقل ما يزرع من الأرض .

غير أن مسكويه في إجابته عن أسئلة أبي حيان كان أدق وأوفى ، فأوضح أن منافع الجبال ووضعها على بسيط من الأرض كثيرة جداً ، ولولاها ما وجد نبات ولا حيوان ، وذلك أن سبب وجودهما وبقائهما هو الماء العذب السائح على وجه الأرض من انعقاد البخار في الجو ، أعني السحاب وما يعرض له من الانحصار بالبرد حتى يعود منه إما مطر وإما ثلج أو بَرَد .. ثم أنهى مسكويه كلامه بأن الجبال سبب الرطوبة الدائمة على وجه الأرض ، ومن هذا التدبير عمارة العالم ووجود النبات والحيوان فيه .

ولكننا لسنا بسبيل التفاصيل التي وصل اليها كل هؤلاء ، وإنما نحن بسبيل القضية العلمية الجامعة التي تجمل هذه التفاصيل في كون الجبال بكيفياتها المنتصبة على الأرض ، وما يؤدي اليه هذا الكيان لو بقي وما يحدث لو زال . وما من شك أن ما قاله القرآن في القضية

كان حكماً ، وأن ما قاله العلماء كان بحثاً وكشفاً ، ولن يختلف هذا عن ذاك إلا أنه حجة له ودليل عليه .

وقد ربط القرآن بين رسوّ الجبال وكونها أوتادا ، وبين الأبخرة والسحب ومجاري الأنهار وانبثاق الينابيع وإدرار القوت والرزق ، وضمان المنافع ، بما يطمس حدة كل كلام جديد ، ويكسوه سربال الاعادة والتكرار .

الأشباه والنظائر

وفي كثير من الأشباه والنظائر التي ساقها القرآن في قضايا الجبال أوضحت آياته أنها أوتاد ورواس في الأرض لئلا تميد . وليس بدعاً أن يكون القرآن قد أراد بالإيتاء والإرساء منافع الجبال اللازمة لها من خلقها في أماكنها التي خلقت فيها ، ومن خلقها بالكيفية التي انتصبت بها والعناصر التي تألفت منها .

ولقد قرنت نظائر القرآن الجبال والمياه في قَرَنٍ . فإذا لم تذكر الأنهار ذكرت ما يكون من آثارها من الخصب والنماء والقوت والرزق، من حيث لم تنس اسماً جامعاً لكل ما يتصور من منافع الجبال فذكرته في كلمة « المتاع » .

وفي نحو عشرة من هذه النظائر جاء لفظ الرواسي اسماً أو وصفاً للجبال ، وقد التزم القرآن أن يذكر معها ـ حينئذ ـ الأنهار أو ما يدل على ما تفعله مياهها من نبات وثمر ، وقوت ورزق ، وقد لا يسير الترتيب اللغوي على نسق واحد ، فقد يتأخر لفظ الراسيات أو

يتقدم عن الماء أو آثاره ، ولكنهما يتجاوران في هذه القبلية أو البعدية تجاور التصاق ، لأن القصد قضية اتصال ما بينهما من غير أن يكون للغة البليغة إلا الدلالة على الحقيقة العلمية المقصودة في قوة ووضوح .

ومن عجيب الإعجاز بذكر الحقائق ، أنه كان على لسان نبي أميّ اتخذ طريقاً يطّرد قياسه فلا ينكسر ، ويستمر فلا يتخلف ، وذلك الاطّراد لا يستمر في قياسات اللغة وقواعدها ، لأنها لا تنبني على بَدَائِه ولا أوائل ضرورية ، وإنما هي صنعة العادة والتجربة ، ولذا لم تستحق اللغة أن ينحصر فيها كل الإعجاز مهما احتال أهل اللغة في التوجيه والتدليل .

ونظائر الرواسي في القرآن هي قوله ـ سبحانه ـ :

« والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وقوله : « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا » .

وقوله : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » .

وقوله : « وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم » .

وقوله : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا » .

وقوله : « أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي » .

وقوله : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة » .

وقوله : « وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .

وقوله : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

وقوله : « وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً » .

ولعل من روائع هذه النظائر أنها لم تربط بين الرواسي والأنهار أو ما يتخلف عن الأنهار بغير فعل واحد ، وهو فعل الجعل ، لتستبين في وضوح إرادة القرآن من أنها قضية واحدة في كيفية الخلق ومشيئة التكوين ، لا انفصال بين جزءيها ولا مباعدة بين طرفيها . ومهما لبست اللغة في القرآن أشكالاً بيانية ، فإن الحقيقة تظل واحدة، والقضية تظل في ثبوت .

وهكذا جاء اقتران الجبال بالمياه أمراً ثابتاً مؤكداً مكرر التاكيد ، فإن لم يجيء هذا الاقتران في آية واحدة فإنهما يقترنان في آيتين متتابعتين كما جاء في سورة الأنبياء من قوله ـ سبحانه ـ : « وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ».

وكل ما يمكن أن يكون في ضمن هذه الجبال من منفعة لهذه الخليقة، فقد أشار اليه القرآن في كلمة « متاع » في قوله ـ سبحانه ـ « والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم » ... والمتاع يتناول السقي من نهر أو

عين ، ويتناول الخصب من نبات وشجر وحب وثمر ، ويتناول الحلية والصناعة والفِلزّ والمعدن ، أو يتناول شئون الحياة كلها وشئون الحضارة بمعارجها ودرجاتها .

يد القدرة

ومهما بحث الناس وراء الجبال واستخرجوا منها معاني وكنوزاً ، فإن قضيتها لا تخرج عما قرره القرآن فيها إذ هي كل القضية ؛ غير أنه لا بد أن يتضح خفي سرها وعظيم خطرها الذي استكن في استقرارها وكيفية انتصابها .

ولعل ذلك السر وذلك الخطر كامنان في قوله ـ سبحانه ـ « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت » . ثم هما كامنتان كذلك في قوله ـ سبحانه ـ « يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا » .

ولأمر ما سبق القرآن بهذا النذير في أول الإسلام ثم أتبعه بالتفصيل والاسهاب فيما جاء بعد في بقية النظائر والأشباه .

فالجبال تبدو منثورة على سطح الأرض في آكام من تراب وأحجار ، وفي تعاريج ملتوية على غير نظام ولا ترتيب ، ولكنها حكمة الخالق جرت هكذا لتدل على القدرة البالغة التي جعلت من الكائن الرخيص والشكل المعيب كل الحياة ، ولو غلا قدره فصار ذهباً أو استوى شكله فكان كرة مستوية ملساء ، لفسدت القضية وما قامت الحياة .

وليس معنى ذلك أنه ليس في الجبال ما هو معقّد التركيب ، ولكن يد القادر نثرته هكذا في الكون نثرا يبدو كأنه مهمل النظام ، ليبدو لعين الإنسان مأنوساً غير مرهوب ، إذ لو بدت عقده وأنظمته وغرائبه ومراهبه لكان الدهش والفزع ملء ما نرى من أرض وسماء ، ولفرّ كل قلب من صدره ، وكل عقل من رأسه ، وهذا ما يكون عند الفزع الأكبر يوم تسيّر الجبال .

وكأنما تنظر عين الصانع البديع إلى ما أبدعته يده من أشياء وألقت به هيناً للناس نظرتها إلى الهين في جانب القدرة . ولعل هذه النظرة هي سر التعبير المجمل في كل ما صنعته يد الخالق في الكتب المقدسة ، وفي القرآن ، ولكن عين الكاشف لسر الكائن تعجب لما ترى وتدهش لما تكشف ، فمن حيث يكتفي الخالق المقتدر بالتنبيه والإجمال..لا يكتفي المتحسس الضعيف بغير البسط وتفصيل الأحوال .

وصانع الأشياء بقوله « كن » ــ إذا شاء أن تكون ــ أكبر من أن يعجب ويدهش لشيء خلقه طبق علمه ومشيئته ، مهما بلغت دقة الشيء أو سعته ، لأنه كله عليه سهل هين ــ لا بمعنى السهولة التي هي ضد الصعوبة ، ولكن بمعنى مجرد توجه المشيئة ــ وهو لا يحتاج زمناً ليكون ، ولكن العقل الضعيف هو الذي يحق له أن يدهش لأنه لا يعلم شيئاً من سر أو مدى إلا بعد الجهد والضنى والشقوة والعناء .. فكانت اندهاشته أشبه الأشياء بتنفس الصعداء يتنفسه المتصعد المتعب في جبل وعر ، أو المترقي اللاهث في عروج صعب .

ومن أعظم الزيغ وأكبر الزلل أن يظن العقل حين يصل إلى سر من الأسرار أنه صار في منزلة المبدع ذاته ـ حتى لو اهتدى العقل إلى التحليل والتركيب وأمكنه قياد أزمة بعض الكائنات ـ فإنه لم يكن ـ ولن يكون ـ الخالق للعناصر التي أمكنته من العمل فيها بالتحليل والتركيب والقياد .

مهابط الوحي

والطور وجبل الجليل وأبو قبيس هتفت على روابيها أصوات الرسالات ، وتمثلت بها وبغيرها سير وتواريخ ، وذلك أمر عجيب ، ولا سيما في شان رسالات التوحيد التي جاءت إلى البشرية من عهد قريب .

وأنا لا أدعي أنني كشفت السر الذي من أجله كانت مهابط الوحي في الجبال ، فإن ذلك عند العليم الخبير ، غير أن العقل البشري ربما تعلق بأسباب مخترعة لأدنى المناسبات وأقرب المشابهات ، فيعقد بها منطقه وينظم دلائله ، فلعل علو الجبال يناسب علو الرسالات فاتخذتها منابر لدعوتها ومراقي لخطبها ومواعظها ، أو لعل حقائق الرسالات راسخة رسوخ الجبال ، وقد قضى أن تكون من أبنية الأرض التي رست عليها ، وقد اكتفى الحال بالدلالة على ذلك دون أن يلتمس الأمر سبيلاً من تشبيه لغوي موجز أو مطنب . أو لعل الجبال لما كانت معالم يهتدى بها في السير اتخذتها الشرائع منازل لتكون هي الاخرى معالم يهتدى بها إلى الطريق .

وما من قول يشفي في هذا الأمر العجيب ، فلأمر ما أهبط آدم على ربوة ، وعرضت الأمانة على الجبال ، وأرسيت سفينة نوح على الجوديّ ، وقطعت على الجبال طير إبراهيم ، وسخرت الجبال لداود يسبحن ، ونتق الجبل لموسى ، وكان مأوى أهل الكهف في الرقيم ..

ولأمر ما كان نسك المسلمين في الحج حول الجبال ، يبتدئون الطواف من حجر ويسعون بين الصفا والمروة ويجتمعون على عرفات. وإذا زاروا سعوا إلى غار الوحي أو غار الهجرة ، وهما غاران في صدور الجبال .

ولقد كان حقاً ما اعتقده الصوفية من جلال الجبال ، فاتخذها كثير من الأبدال مساكن ومساجد ، فقد وصفها القرآن بالخشوع والتسبيح والسجود والتأديب ، فلجأوا إليها لتقطعهم عن الخلق ، وتحرمهم من بلوغ الشهوات ، بينما تصلهم بالخالق وتصرفهم إليه عن كل ما سواه .

ثم اتخذت الأساطير طريقها إلى الجبال فصنعت حولها القصص ذات الأخبار ، والأوصاف ذات الأهوال، وبقدر ما يسيل على سفوحها وجوانبها من وحوش وهوام .. استفاضت أحاديث الأقدار والغرائب والفجاءات والعجائب .

ولقد زعمت الكيسانية أن محمد بن الحنفية ـ وهو مهديهم المنتظر ـ مقيم على جبل رضوى ، وأنه حي لم يَزَل، وأنه يعود بعد الغيبة ليملأ الأرض عدلا ، وهو إبداع في الخيال أو أمر من المحال .

وما أجدر أن يحبس كل طامع أمنيته عن أن تتحول هذه الجبال من تراب وصخور إلى ذهب وفضة ليقتطع النـــاس منها الثروة التي يتحرقون اليها والحلية التي يتهافتون عليها .

وما أجدر أن يحبسوا أمنيتهم أيضاً عن أن تزول هذه الجبال من أماكنها حتى تكون لهم الأرض مهاداً ميسوراً وجهداً موفورا .

وليعلموا أنه لو تحققت لهم هذه الأمنية أو تلك لرأوا أنفسهم أمام حياة تزول ، وكون يفنى ، فإن الذهب والفضة لن ينبتا لهم طعامـاً ولا ظلا ، والمهاد الميسور لن يبقي لهم سحاباً ولا مطرا ، بـــل لن يحبس ماء البحر في وهدته التي هو فيها ، وإنما سيطغي طوفاناً يغرق الأرض كلهـا من حيث لا يكون الجوديّ ولا السفينة التي كان إليهما الملجأ وعليهما النجاة .

وتصور أنت حتمية الزوال لو ذاب ربع الأرض الذي هو يابس قابل للغوص والذوبان في ثلاثة أرباعها التي هي مـاء . وعذ بربك من أن تصبح أرضنا من برٍّ مغمور في بحر مسجور !.

وانه لأبقى للحياة وأضمن لها أن تظل هذه الجبال وجددها البيض والحمر وغرابيبها السود في أماكنها وعلى حالها ، لتستقيم الحكمة وينتظم أمر العالم على ما هو به موجود .

وربما تصور الناس الهول من ثورة بركـان أو وقعوا في هوله ، فادركوا بما رأوا أو ذاقوا أوائل من نذر القيامة، حين تتفجر جوانب

الجبال فترمي بالصخر وتقذف باللهب ، ولكنهم لا يستطيعون أن يتصوروا الهول كله حين تنهد الجبال وتستوي الأرض كرة ملساء تغمرها المياه كأول ما كانت في البدء والتكوين ، ولا يبقى غير روح الله يرف على وجه الغَمْر كأول ما جاء في قصة التوراة .

وإنه لحق واقع ؛ ففي نحو اثنتي عشرة آية من آيات الوعيد ونذر القيامة أخبر القرآن بزوال الجبال ، حيث تصيبها الرجفة والتسيير والبث والنسف .. وقد جرى كثير من علماء الطبيعة مشاوير طويلة في البرهنة له والتدليل عليه .

ومهما هبت بالأرض اليوم أعاصير تدمر ما تمر به وتأتي عليه ، فإنما هي نسم ضعيف ، وريح مريضة ، إذا قيست غداً بنسم الساعة حين تشتد روافدها وتقوى دعائمها .

وهكذا بين وجود الجبال التي هي في عوج وأمْت قامت الحياة ، وفي زوالها وزوال معاوجها وأُموتها تزول الحياة ، وهي معادلة علمية ملموسة ، وقضية صادقة مطردة ومعكوسة .. جاء بها القرآن جارياً على لفظه ومنطقه ، دون أن يذهب إلى طريقة المنطق ومقدماته ، غير أنها قضية تبهر العقل والعلم ، وتدهش العقلاء والعلماء ، وتفوت عين الحكمة وعيون الحكماء .

* * *

مَوَاقِعِ النُّجُوم

رباط وثيق – اتجاه علمي
باطل النجوم – اختلاف المواقع
السماء الدنيا – العمد والتدبير

رباط وثيق

ثلاثة نظائر جاء بهن القرآن يقسم بالنجوم : إحداهن في سورة النجم إذ يقول « والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » والثانية في سورة الواقعة إذ يقول : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين » والثالثة في سورة التكوير تقول « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون

ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين » .

ومن القول الراجح أن تكون « الخنس الجوار الكنس » هي النجوم ، إذ النظيران اللذان سبقاها في النجم والواقعة يروحان إلى هذا المعنى بل ويؤكدانه ، دون أن يذهب معناهما إلى البقر والظباء ، كما ذهب بعض المؤولين ، فإن ذكر القرآن بعد القسم بها يجري مع النظرين السابقين مجرى واحداً فيرجح المعنى ويؤكده ، كما جرت عادة النظائر في القرآن واطّردت حكمتها .

وهذه النظائر يؤكد القسم فيها أن القرآن من عند الله ، وقد ارتبط فيه القسم بالمقسم به ارتباطاً وثيقاً ، وهو يبين أن القرآن لم يكن إلا وحياً منزلاً حمله رسول من الملائكة أمين كريم ، ثم حملت النظائر مع ما حملته آداباً لتلقّي القرآن ووجوب الإقرار برسالة الصادق الموحى إليه به ، وبيان ما جاء القرآن من أجله ، وأنه جاء من وراء الغيب ليكون ذكراً للعالمين .

ومع أن النظائر قد سيقت مطالعها في أسلوب واحد وهو القسم بالنجوم ، فإنها اختلفت في المعاني ؛ لئلا يكون تكراراً يجل القرآن عنه ؛ فقد أضافت آية النجم إلى القسم مساير النجوم وأضواءها ، وربما أضافت مقاصدها وآثارها ، وأضافت آية الواقعة مواقع النجوم ودورانها في أفلاكها وانقسامها إلى ثابت ومتحيّر ، وأضافت آية

التكوير تغيُّر مطالعها في الليل والنهار، وظهورها وخفاءها واستقامتها وميلها .

ولم يدع القرآن تلك الأقسام دون أن يبين مكانها من الصدق والحق ، فقرر مؤكداً أنها أقسام عظيمة ، وأنه لا مفر من الإقرار بعظمتها والتصديق بالحق فيها ، ولا سيما لو قدر للراسخين في العلم أن يصلوا إلى بعض أسرارها ويعرفوا بعض أخطارها ، مهما طالت عليهم الدهور ، وتمادت بهم الأزمان .

وقد أحاطت النظائر بمن ينكر هذه العظمة فيجحدها ويجحد معها بالقرآن، إذ لا بد من التسليم بهما معاً، فإن مواقع النجوم ونزول القرآن منظومان في قضية واحدة مربوطان في وثاق أكيد . وما النجوم على بعد مراميها والأفلاك على اتساع أرجائها والقرآن على جليل خطره وعظيم أثره إلا وحدة مترابطة الأجزاء متصلة الأنحاء . وليست الأضواء التي تتساقط من النجوم بأبهر ضوءاً من القرآن ، ولا الأفلاك التي لا تخطىء طريقها النجوم بأهدى سبيلاً من القرآن ، بل لم تكن الأضواء التي ترسلها النجوم الى الأبصار غير قبس ضئيل مما ترسله هداية القرآن للبصائر والقلوب ، وكلاهما صنعة الله وكلامه وهديه ونظامه .

وكأنما اتخذ القرآن القسم بالضوء الظاهر للدلالة على النور الباطن ، وجاء بالمحكم الواضح ليكون سبيلاً لتأكيد الخفي المتشابه . ولما لم يكن

أوضح في العيون من الضوء مع بعد مكانه وخفاء سره فقد كان القسم به دليل صدق الكتاب المسطور في لوح الغيب المستور .

اتجاه علمي

ولم يُلْق الإسلام بالاً إلا لما هو في النجوم حق وعلم ، ولم ينظر القرآن اليها في مواضع القسم أو في غيرها من آياته إلا بجريانها في أفلاكها ومطالعها وتهورها وانصبابها وترفعها، ولم يزل الصدق فيما مس القرآن والحديث به النجوم قائماً مع علم الهيئة عند الناس وانقلابه واختلافه عما كان عليه قديماً واتساعه .

وقد جرى علم الفلك عند العرب وغيرهم مجاري طويلة ، وتبعه الأدب العربي خاصة في أشواطه ، فتحدثا معاً عن النجوم وأشكالها واجتماعها وتفرقها ومطالعها ومغاربها وأضوائها ومنافعها ، وما صنعه علم الفلك قضايا اتخذه الأدب تشابيه وتخاييل ، وكأنما لم يترك العلم ولا الشعر نجماً تراه العين إلا رصداه ، ولم يدعا أرضاً إلا صوّرا سماءها ، وأجريا عليها كل ما يمكن أن يطلع عليها من أنواء، وما يسيل في مساربها من جدوب وغيوث . وكأنما استنفد الشعر العربي طاقته في هذا المجال ، فلم يعد لشعراء العرب اليوم من قدرة على وصف منظر واحد من مناظر السماء .

ولم يأل القرآن نصحاً في أن يسوق الناس إلى تتبع النجوم ومواقعها ، وحُبُك السماء وبروجها ، ومنازل القمر حتى يبلغ عرجونه ، وجريان الشمس حتى تستوي في مستقرها ، ولم يكن القسم

العظيم بمواقع النجوم إلاّ قضية جامعة خطيرة لا تطلب عين الغافل ولا تدق باب الجاهل ، وإنما تنادي قلب العالم وتنبه عين الساهر . ومتى صار إلى الراسخين في العلم منهم علم الأفلاك ومسالك النجوم تحقق الشرط الذي شرطه القرآن في إدراك عظمة القسم والتحقق منه في قوله سبحانه « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » وكأنما لن يتم ذلك إلا إذا صار العلم بالنجوم ومسالكها علماً أكيداً وإدراكاً وثيقاً .

ولقد كان وصف القرآن للدراري السيارة بقوله « الخنس الجوار الكنس » تنبيهاً على ما يراد لها من الرجوع والاستقامة والاعتدال والميل والانصباب والتهور ، وكذلك كان تنبيهاً إلى غيرها من النجوم الثابتة التي لا تتحير ولا تسير .

وإدراك عظمة القسم في آية الواقعة جاء معلقاً على العلم ، فكان حثاً من القرآن على علم النجوم والبحث عن مسالكها وأفلاكها ، كما كان إدراكاً من الغيب بأن هذا الزمن لا بد آت ، وإذا آن أوانه وحل زمانه أدرك الناس قيمة العظمة التي أخبر بها القرآن وأقسم بها الفرقان .

ولعل الناس في زماننا يظنون أنهم وحدهم الذين اشتاقوا إلى بلوغ النجوم وركوب متن الفضاء ، ولكن الإنسان كان كلما ازداد علمه تاق إلى بلوغها واشتاق إلى ركوبها . ومن أعجب ما يصل القديم بالجديد ويعرض فكرة الإنسان ولهفته التي لم تخمد في الشوق الى الرحلة للفضاء قول إخوان الصفا قديماً :

« إن العاقل إذا نظر في علم النجوم وفكر في سعة هذه الأفلاك وسرعة دورانها وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها وأقسام هـذه البروج وغرائب أوصافها تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك والنظر إلى ما هناك معاينة » .

ولكن لما كان الإنسان لم يصل بعد إلى الآلة التي تحمله ، والوقود الذي يسلك به الفضاء ، والزمن الذي يقضيه فيه ، فقـد يئس إخوان الصفا ، كما يئس الذين من قبلهم أن يبلغوا إلى ما هنالك فقالوا : ولكن لا يمكن الصعود إلى ما هناك بهذا الجسد الثقيل الكثيف . وحسبوا أن الصعود لا يكون إلا بعد الموت بعد أن تخف الأجساد من سوء أفعالها وفساد آرائها وتراكم جهالاتها ورداءة أخلاقها .

فما لبث الزمن وما لبث الذكاء والعلم أن حققت كلها أمنية الصعود أو أوائلها ، محاولة أن تصل بجسد الإنسان إلى النجوم دون ترك الآثام وطرح الجهالات ، لأن طريق الوصول أصبح آلياً لا روحياً ، وبلوغ النجوم صار منطق علم لا منطق أخلاق ، وربما بطل ما زعمته الحكماء والصوفية معهم من أن الأفلاك لها نفوس مضيئة لا توصف بالنقص ولا الزيادة وهي تتحرك عن شوق لطلب الكمال .

وربما استوى في إدراك العظمة والإقرار بهـا الوصول إلى معرفة آماد النجوم وحقائقها والعجز عن الوصول إليهـــا ، ولقد بات بيّـن الظهور ـ بعد المحاولات المضنية ـ أن الوصول يحتـــاج إلى أزمنة مفرطة في الطول ، بالغة في المشقة ، ثم يصيبها العجز بعد العجز ، ولا

يدري أحد ، حتى علماء الفضاء أنفسهم ـ متى يكون الوصول ، غير أنه لا بد من الوثوق بأنه لا حياة لنا إلا على وجه الأرض التي خلقنا منها ، مهما نفرت خيالاتنا من جاذبية الأرض وحاولت العقول والعلوم أن تخرج منها وتبتعد عنها .

وفيما عدا النظائر الثلاثة التي وردت على أسلوب قسم في القرآن وردت آيات أخر للبروج والمنازل والمنافع وانتصاب النجوم علامات للسير ودلالات للهداية كقوله ـ سبحانه ـ « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » وقوله « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » . كما أن مطالع الدراري في البروج وتقلب القمر في المنازل وجريان الشمس في مستقرها ــ كل ذلك يقوم دلالات على أوقات الغرس والزرع والنماء والحصاد ونظم الادخار والاقتصاد، وعلى حركات الفصول والرياح والبرد والحر .

ولم تكن الإبرة المغطسة وحساب الاتجاهات التي تسير عليها السفن منذ كشوف الحضارة ، وتشق بها الطائرات عباب الجو في زماننا ، إلا اهتداء بالنجوم وتقلباً مع ترددها طالعة وغاربة ومقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة ومعتدلة ومائلة ، فهي أصل من أصول الحساب ، لاختراق العباب ، أو شق السحاب .

باطل النجوم

ولقد تنزه القرآن أن يرتطم بباطل النجوم وإفكها ارتطام بعض الفلسفات أو سائر الخرافات ، بل أزرى بكل ذلك ولم يهتم إلا بما هو

حق وعلم . أما ما اتجه إليه العرب والمسلمون بعدُ من صلة الكواكب بمرام القدر ورمي القضاء فإنه لم يكن قط تأثراً بمسلك القرآن واتجاه فكره ، إذ لم يرَ فيما يدعيه الناس من ذلك سوى تعلة مبطل وكذبة متخيل .

والحق إن العرب والمسلمين حين اتجهوا إلى النظر في النجوم سلكوا إلى غرضين اثنين :

إما إلى علم أحوال الكواكب في اختلاف مسيرها ووقوفها وطلوعها وغروبها واقترانها وتباعدها ، وسار لهم في هذا النظر ما يفتح القلوب ويشرح الصدور ويشوق النفوس ويبعث فيها قوة الإيمان ويسوق إليها دليل التوحيد .

وإما إلى ما لم يُرد القرآن ولم يهتم به من تقليد اليونان وغيرهم في اقتباس الأحكام لما يستقبل من الحادثات ، بأسباب من نماذج صور الكواكب واختلاف أشكال الفلك وصلة ذلك بالقدر والقضاء ، وهو أمر شديد التعب قليل الدرك ، وخطؤه أكثر من إصابته ، وإصابته أضر من الجهل به . وكان هذا الأول الذي اتصل به العلم ـ وهو ما قصد إليه القرآن ـ هو الذي أفاد التعجب واستكثر من العبرة ، كما كان أرضى للبال وأحسن عند الاختيار .

وهكذا افترق الأمر عند المسلمين ، فمهما كانوا قد انعطفوا على نبش الأفكار اليونانية وتأثير الكواكب بطبائعها التي تخيلوها وغالوا في الاستدلال بدوران الفلك ـ في نظر القدماء ـ وطوالع البروج ، وفعلها

في الكائنات قبل وجودها تحت فلك القمر ـ كما كانوا يقولون ـ ومهما اتخذوا من علم أحكامها التجديف بكمية أعمار المواليد والحدس بطول البقاء أو قصره ، في عالم الكون والفساد ـ مهما كانوا قد عادوا إلى هذه الأباطيل فقد أبطل الاسلام اتخاذ الدلالات من الكواكب على أعداد معلومة من الساعات والأيام والشهور والسنين ، أو على حظوظ مختلفة من السعود والنحوس أو الموت والحياة .

وربما كان الذين أوّلوا قوله تعالى : « فالمدبرات أمرا » بالنجوم وآثارها في الأعمار والحظوظ قد تجاوزوا في التأويل أو انحرفوا عن الدليل، فإن القسم بمواقع النجوم كان اتجاهاً خالصاً نحو العلم والحقائق، ولم يكن اتجاهاً لخرافات التنجيم وصناعة ما يقال عن حركات الأشخاص العلوية ، وتأثيرها في الأشخاص السفلية ، وهي كلها ضروب من الحدس والظن والأوهام والأباطيل .

وحتى إذا صدق تأويل الدراري السيارة بتدبير الأمور، فإن ذلك التدبير لا يعني غير إحداث النظام الرتيب من سير الزمن ومنافع الناس تبعاً لاختلاف الفصول وتغير الجواء وتقدير التقاويم. ومن ثم لم يجز اتهام الفكر الإسلامي بالخوض في باطل النجوم . وقد برىء القرآن كله والحديث كله من هذا الخوض بل أنكره وحطم أثره في نفوس معتقديه، ولقد كان وعظاً صارخاً ما نبه إليه الرسول الكريم يوم موت ابنه ابراهيم وكسفت الشمس فظنها الناس من أجل موته، فقال رسول الله ﷺ « إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله ـ عز وجل ـ

ولا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموهما فعليكم بالدعاء حتى ينكشف » أو قال « ... ولا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد » .

فالعلم بالنجوم ومواقعها واقترانها وتفرّقها ومعرفة مواضعها في البروج والمنازل ، إنما هو اكتساب من العلم للانسان وتكلف منه وجدّ واجتهاد ، وهو لا يمت بشيء إلى ما يقترفونه من الادعاء بمعرفة الغيب، لأن علم الغيب لا يكون باستدلال ولا علة ولا بسبب من الأسباب ، وهذا لا يعلمه منجم ولا كاهن ولا نبي ولا مَلك ، إلا الله وحده ، الذي احتفظ لنفسه بعلم الغيب ، فلا يطلع على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول .

وأبطلُ ما في باطل المنجمين دعواهم بأن نظر الحكماء في علم النجوم وبحثهم عن أسراره فيه إرضاء لنفوسهم واستعانة به على التوقي والحذر ، وهو احتجاج اللغو وكلام من الباطل لا نفع فيه ولا ثمرة له، لأن النجوم إذا كانت فاعلة فلا وقاية منها ولا خروج عليها ، لأنها سائرة في طريقها رضي الناس أم غضبوا ورَجَوْا أم سكتوا .

وقد أجمع الفقهاء وأصحاب الحديث على النهي عن النظر في هذا النوع من علم النجوم ، ولم تقم ضد هذا النهي حجة ، ولم ينهض للتهوين من شأنه دليل .

اختلاف المواقع

وليس من شك في أن أبعاد النجوم المذهلة ـ حتى للعقل والعلم ـ

كانت أحد المرامي التي قصد إليها القرآن ، ونبه على شأنها في قسَمه بمواقع النجوم ، تلك الأبعاد التي يحاول عصرنا ـ بما وصل إليه من ذكاء في تسخير القوى وإشعال الوقود ـ أن يصل إلى أقربها ، وما زال يستعد ويجرب منفقاً كل ماله وذكائه وقواه حتى حرم الناس جميعاً من حاجاتهم ، لكي يعرف بداية الأبجدية عن الفضاء الكوني ، ثم عن الكواكب والنجوم .

ولعل القرآن قد أضاف إلى المراد من مواقعها اختلاف أفلاك الكواكب المتحيرة منها على الراسب الثابت ، دون أن يزحم كوكب كوكباً أو يصطدم به ، وإنما هي تجري في خلاء ممتد إلى ما لا يستطيع الحساب أو الخيال أن يدركه ، بل العلم متردد في أن يحسب له نهاية أو يفترضه مستمراً فلا يقف به عند غاية .

ولعله أراد بمواقعها أوقات ظهورها من كل ليلة وكل سنة والأزمنة القصيرة والطويلة ، حيث تقاس المسافات والأزمنة بها ، ولولا تغيرها بين الظهور والغياب لما عرفت ـ عندنا ـ الأزمان ، ولا رؤيت الألوان ، ولا قدرت الأبعاد والأركان ـ مع أن أحداً لم يشهد الدراري المتحيرة مجتمعة كلها قط لأنها لا تجتمع إلا في الندرة وفي الأزمنة الطوال التي تقدر بالملايين ـ وأما في أكثر الأوقات فهي متفرقة في البروج ، سابحة في الأفلاك ، مختلفة بين الدرجات .

ثم لعله أريد بموقعها الحكمة من بعدها عن مراقب الأحداق وملامس الأبدان ، فإن سرعة دورانها ـ دوراناً ظاهرياً لها من حيث

قد ثبت بأن الأرض هي التي تدور ـ لا يكاد يحس به الرائي المحدق ولا اللامس القريب ، لبعد النجوم عن العيون والجسوم بعداً سحيقاً ، ولو كانت قريبة لاختطفت الأبصار بوهجها وأشعتها، وأدارت الرؤوس بسرعتها وشدتها ، بل ما ثبت راءٍ في مكانــه ، ولا استمر نجم في دورانه .

ولما كان من النجوم ما يظهر وما يختفي وما يسبق وما يلحق وما يسرع وما يبطئ وما يقف وما يتحير ، صار الاختلاف أمراً يجمع المصلحة ويقضي الأرب ، إذ لم تصِر كلهــا راتبة ، أو كلها متنقلة ، لئلا تبطل الدلالات على البروج والمنازل والفصول والسنين ، لأنها إنما تقاس بسير المتنقل ومروره على الراتب .

ومن ذلك كله تبلغ المعجزة الباهرة مكانها الذي عبر عنه القرآن بالمواقع وأقسم بعظمته ، واشترط لإدراك عظمة القسم أن يتعرض له العلماء المؤمنون ، فإذا أدرك العلماء المواقع وعرفوها وأدركوا مباعدها وحسبوها ، كان ذلك إقراراً بالحكم الذي أخبر الله به ـ سبحانه ـ في قسمه بمواقع النجوم .

ولقد حاول القدماء أن يوجدوا عللاً من الحكمة لأعداد البروج والأفلاك والدراري ، ولكنها كانت بداية محاولات لإدراك الحكمة في خلق السموات ومواقع النجوم ، غير أن المسلمين زادوا برصد المواقع تقدير الجهات التي تحيط بالبيت الحرام ، حتى يتسنى للناس من أرجاء الأرض أن يستقبلوه عند كل صلاة ، فقدروا اتجاهات القبلة في كل وبر

ومدر وبر وبحر ، إلا أنه بات على المسلمين أن يفكروا كيف يكون الاتجاه لو دار المسلم في الفضاء أو سكن السماء ؟..

السماء الدنيـــا

وقد ذكر القرآن السماء الدنيا في عدد من آياته ، عارضاً زينتها وبروجها وطرائقها بقوله : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » وقوله : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للنـاظرين » وقوله : « والسماء ذات الحبك » فربما كانت السماء الدنيـــا هي كل هذه الصفحة المشاهدة بالعيون المجردة أو المرئية بالمناظير .

ومن الحق كما قال بعض العلماء ــ أنه لم يثبت مدلول ينتهي عنده تحديد السماء الدنيا ، فما زال الناس فيه على خلاف ، وربمـا أثبته العلم وغزو الفضاء بعد ، أما الآن فلا هو محدود بمجموع كواكب الشمس ولا بنات المجرة ، فما زال أمر السماء الدنيا وأمر السموات السبع من المتشابه ذي الاحتمالات ، وربما رده العلم إلى المحكم غداً فاستقر بيانه إذا ثبت برهانه .

والمتشابه لا يُعلم المراد بظاهره ولا يتعين تأويله حتى يقترن به ما يدل على المراد منه بقاطع الدليل ، وذلك لاشتباه معانيه واحتماله فيها وجوهاً ، وقد ابتلى الله العباد بالمتشابه فلا يجوزون به عن الحق إلى الباطل ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام. والمتشابهات لا يتضح مقصودها إلا بالفحص والنظر ، ليظهر فيها فضل العلماء ، ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها ، وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد

منها ، فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات .

ويقول البيضاوي في تفسيره « وذلك لا يكون إلا بردّ الوجوه إلى وجه واحد وإبطال الباقي فيصير المتشابه محكماً ، وبه يظهر فضل العلماء لأنه لو كان واضحاً لم يظهر فضل بعضهم على بعض ، وهكذا من يصنف تصنيفاً يجعل بعضه واضحاً وبعضه مشكلاً ويترك للجماعة موضعاً ، لأن ما هان وجوده قل بهاؤه » .

ولم يعد غائباً عن أحد أنه قد ثبت – من الجهود المضينة المبهظة التي تبذلها البشرية اليوم لقياسات مباعد الفضاء ومعرفة كنهه قبل الوصول إلى أقرب كوكب – أن الزمن المحسوب على الأرض إن هو إلا جزء متناه في الصغر لأزمنة طويلة أو لغير ما يسمى بغير الأزمنة لأنه لا نهاية لأطوالها ولا أواخر لأوائلها .

ومن قبل هذه الكشوف لم يهمل القرآن ولا اللغة الدلالة على مصطلح اليوم الذي قيس في اللغة مرة بعهد من التاريخ ربما انتظم مئات السنين ، وقيس في القرآن مرة بأنه كألف سنة أو خمسين ألفاً مما نستطيع أن نعدّ أو نعرج ونرقى . فهو هناك لا يقاس بيومنا ولا دورة أرضنا ولا تحير النجوم من حولنا .

وثبوت هذه الحقائق بتقدم العلوم الحاضرة جدير أن يجبر العلماء في كل مدنيات الأرض على الاعتراف بصدق أحكام القرآن – مهما كانت مجملة موجزة – وبدلا من أن يكون علم النجوم مدعاة للإلحاد ، وجب

أن يكون مدعاة للإيمان ، وبه قد صار للقرآن إعجاز دائم التجدد مستمر القوة رائع الدليل .

وقديماً قال إخوان الصفا :

« إن أكثر أهل زماننا الناظرين في علم النجوم شاكون في أمر الآخرة ، متحيرون في أحكام الدين ، جاهلون بأسرار النبوات ، منكرون البعث والحساب ، فدللناهم على صحة أمور الدين من صناعتهم واحتججنا عليهم من علمهم ، ليكون أقرب من فهمهم وأوضح لتبيانهم » .

ولهذا زجروا عن باطل النجوم، وقد أورد التوحيدي في مقايساته علة الزجر عن النظر فيه فقال : « لئلا يكون هذا الإنسان مع ضعف مخيلته واضطراب غريزته ظاناً بأنه ما ياتي في شأنه قائم بجدّه وقدرته وحوله وقوته ، فإن هذا النمط يحجز الانسان عن الخشوع لخالقه والاذعان لربه ، ويبعده عن التسليم لمدبره ، ويحول بينه وبين طرح أمره بين يدي من هو أملك له وأولى به » .

ولكن عقلاء العلماء قد اتخذوا سبح الكواكب في الأفلاك والقمر في المنازل والشمس في البروج ، والسرعة في السير والبطء في الحركة ، والوقوف والاستقامة والرجوع ، وكل الاتصالات والاقترانات والانصرافات والاحترافات ـ اتخذوا من ذلك كله ـ ومعهم الفكر الإسلامي ، قواعد لإنشاء التقاويم واستخراج التواريخ ، ثم كان هذا كله قاعدة بنى عليها الناس علم النجوم ، ثم زادوا قوة وسعة بما حصلوا

عليه من نمو الذكاء وأفنـــان العلم ، ففاق عرفانهم كل ما سبق عرفانه ومات زمانه .

العمد والتدبير

وكما أن الله ــ جل شأنه ــ لم يترك الإنسان دون أمر ونهي ليتدبر أمره وينظم ملكه ، فأنزل القرآن من لدنه بهـــذا التدبير والتنظيم ، فكذلك لم يدع الله النجوم مهملة فتسير كلها أو تثبت كلها ، بل سير منها ما سيّـر وأوقف ما أوقف ، ليدل ذلك على عمـده وتدبيره في كل أطراف ملكه وأرجاء مخلوقاته .

والذين قالوا ــ أو يقولون ــ إن اختلاف مراقع النجوم كان أمراً مهملاً من غير عمد ولا تدبير ، وإنما هو طبيعة تسير ، لم يكونوا إلا غافلين ، إذ ليس الإهمال ــ كما قال المعتزلة وشيخهم الجاحظ ــ إلا معنى واحـــداً ، فكيف يصير بحركات مختلفة وتقادير متباينة وأوزان متفاوتة ، مع حكمة بالغة في نظامه ودقة فائقة في اتساقه وانسياقه !

وقد قال بالإهمال جماعة من المبتدعة القدماء ، ومما لا شك فيـه أن مبتدعة عصرنا سيقولونــ به ، بل هم قد قالوه ، وقد قال العابثون منهم إن مراكب الفضاء لم تجد الله في الفضاء الذي اجتازوه، وسيقولون أكثر مما قالوا عند كل كوكب يلجون بابه أو يسلكون أسرابه، وكأنما وُكل إلى علم النجوم أن يأخذ بأهله إلى الانحراف ويذهب بهم مذاهب الإلحاد ، وليس لذلك من سبب إلا اغترار علمـاء الهيئة بما يصلون إليه

من إدراك ما لم يدركه غيرهم ، أو لما يدعيه أهل باطل النجوم من أنهم وصلوا إلى أبواب الغيوب .

وأول ما يجب أن يعرف أن الأيْنية منفية عن الذات ، وهي من قضايا الاسلام الكبرى، وقد وكل إليها أن تبعد العقول وتطرد الظنون عن أن تدرك هـذه الذات مهما بلغ الإنسان أقصى السموات وأبعد المجرات ، فالله ـ سبحانه ـ يجل عن الأيْن والمكان ، وكل ما يقع تحت إدراك الإنسان وعلمه أو حدسه وظنه فانما هو من مخلوقاته وبعض ممكناته .

بل إن في اختلاف النجوم بين راتب ومتحيّر ومستقيم ومائل ، مع اتفاق اجتماعها وافتراقها في الأفلاك المتباعدة ، بحيث لا تنحرف ولا تصطدم ، لدلالة أكيدة على أنها كون واحد لخالق واحد « لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا » ولو لم يدركها تدبيره وحده وحسابه بمفرده لفسدت الأحكام وانهدم النظام .

ولقد كان في الارتباط الملموس في آيات النظائر بين النجوم والقرآن وهدايتها للأبصار والبصائر أكمل دليل على أن خالق النورين واحد ، بل هو خالق الظلمة والنور وحيرة الكواكب ووقوفها ، وتحول الزمن على الأرض وانعدامه على النيرات .

ثم هو خالق القلوب وتقلبها ، ومبدع حيرتها وثبوتها وكفرها وإيمانها ، ولم يكن هذا الإبداع في الخلق إلا باعثاً على وجوب طاعته

والإقبال على عبادته ، لصدق ما دل به على العمد الذي أراده ، والتدبير الذي شاءه ، ليتم صلاح الكون وتستقيم حياة الكائنات .

وكأنما أقسم الله بمواقع النجوم على أن القرآن من عنده لما بين النجوم والقرآن من شبه وقربى ، فكلاهما – مع أنه يهدي – يطرح شعاعاته إلى جميع درجات الفلك ونواحي اتجاهاته فيضيئها ويملؤها نوراً . على أن القرآن أتم من النجوم هداية وأقوى نوراً ، إذ تتفاوت أضواء النجوم على مناسبات الأرض بقدر طلوعها ومرورها ، أما القرآن فلما كان قريباً مقيماً كان أعم هداية وأغمر نوراً .

ولما كانت حقيقة النور غير مدركة ، فربما كان الاتصال بين القسم والمقسم به لهذا الأمر الروحاني الذي هو النور المنبعث بإرادة الله وصنعه فيعم الأبدان والأرواح والكواكب والآيات ، وليس النور – مهما اختلفت ألوانه وافترقت آثاره – إلا أصلاً واحداً ومنبعاً فارداً .

* * *

الظلال والأفياء

تقدير الأشياء – السير الرتيب
الظل والفيء – حضارة لغوية
اختلاف الجزاء

تقدير الأشياء

الظل الذي ترخيه الأشياء بجوارها وعلى جوانبها ممتداً أو منقبضاً يتحرك إذا تحركت ويسكن إذا سكنت ، فلا يسمع الناس له همساً ولا يلقون إليه بالاً ، إنما هو أحد مُبدَعات القادر في صناعة الكون . وحتى تتفتح عليه العيون فلا تغضي وتتنبه له النفوس فلا تغفل ، أشار إليه الإسلام في كتابه وأحاديث رسوله إشارات تثير إليه العقول لتحصل على سره وتكشف خبيء أمره .

لم يكن من بدّ حين جاء دور العلم أن يلقي إليه علماء المسلمين بتفكيرهم ، فاستقر لديهم أن الظل كائن بالغ الشأن ، حين رأوه يسكب الجمال على الحياة ، ويزيح عن وجهها الشحوب واكتئاب الأسارير ،

ويقع بها على ملاجىء الراحـــة وراحات السكون ، ثم هو يدل على حركتها وتنقلها ونبض الروح فيها ، ويشير إلى أن ذلك كله دليل على دقة التقدير وعظمة التدبير .

فحين قال القرآن « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل » لم يكن من ريب في أنه لم يرد مجرد التعجيب من صور الظل ورسومه ، وإنمـــا أراد أن يثير العقل والعلم لإدراك هذه الكيفية ويقيس آثارها الكونية، لا برؤية العين وحدها ، وإنما برؤية العقل والعلم معها ، لأن العين حين تغلط في تقديرها للأشياء يتنزه العقل والعلم ويتقدّسان .

والأميال التي تعبرها ظلال الكون في حركة راتبة دائبة، معدودة بأضعاف ضخمة للألوف ، وهي في حاجة إلى المراصد والمجـــاهير وفروض الحساب ، لم يهمل نبي الإسلام أن ينبه عليها ليوقظ همة العقل وقدرة العلم : ففي حديث له مع جبريل ـ عليهما السلام ـ تنبيه على الحركة الجبارة للأضواء والظلال التي هي في منأى قصيٍّ عن مشاعرنا الفطرية لئلا تزعجنا إذا اقتربت ، إذ قال له النبيّ : أزالت الشمس ؟ فقال جبريل : لا ، نعم . قال : كيف ؟ فقال له : مذ قلت لا إلى أن قلت نعم ، قد تحرّك مسيرة خمسمائة عام .

وجرت الحكمة أن تخلق الأشياء مقهورة على مقاديرها وأحجامها وسلوكها وحركتها فيما يمضي لها وما تؤول إليه، ولم يكن قهرها كذلك إلا بمقدار الحاجة والصلاح لا الأهواء والشهوات ، وكان من الحكمة أن يكون التقدير والتركيب سرًّا خفياً على القلوب والأفهـــام ـ وحتى

عليها في تقديراتها هي ــ وذلك حتى تكون للعقول لهفـــة الشوق إلى المعرفة والكشف وتكون لها لذة الحصول على بعض الأسرار والغيوب.

وقول الله سبحانه بسورة الفرقان«وخلق كل شيء فقدره تقديرا» لم يكن مجرد خبر يقال، بل كان تحدياً لأقصى قدرات العقول والعلوم، منبئاً أن خلْـق الأشياء ــ على ما خلقت عليه ــ موجب على نظر العين والبصيرة أن يلحظه وأن يدركه ، حتى يؤدي إلى إيمان جديد يسقط قول المجوس والمثنوية والقائلين بقدرة المخلوق على الإنشاء والإيجاد .

وقد عاد القرآن في السورة نفسها ينبه إلى تقدير الظل ، ويطلب إلى العلم أن يحث العين ويبعث القلب ليرى تقديره ومظاهره ومـده وقبضه وأسبابه وآثاره ، ثم يرى الرحمة الربانية التي تسوقه دائباً راتباً لا يسكن أبداً ، إذ لو سكن لانتقض البناء وانتقض الإحكام ، وذلك حين يقول « ألم تر إلى ربك كيف مـد الظل ولو شاء لجعله ساكنـاً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً »

ولم يكن النبي وحده هو الذي خوطب به ، ولكنه كان له ولجميع المكلفين ، بأن ينظروا إلى ما صنع القادر بالظل وكيف مده وقبضه ، ولماذا جرت مشيئته بتحريكه في حياتنا هذه لا بتسكينه ، وأن لا يكتفوا بنظر العين ، بل يحلوا عقد حسابه ويقيموا لكيفياته المراصد ويصنعوا المناظير .

ثم كان في التنبيه عليه إيقاظ النفوس على الحركة الأبدية التي تلزم

الأشياء فتدل على الزمان وما تعلق به، مما يبقى أبداً على وتيرة واحدة، ما دام هذا الفلك دائراً بحكمة القدير ودقة التقدير .

السير الرتيب

ولا تتحرك الشمس في السماء ، أو لا تدور الأرض حول نفسها وحولها ، وكذلك القمر حـــول الأرض ، في قفز ووثب أو تحير واضطراب ، إذ لو كانت الحركة قفزاً ووثباً لحدثت الفجاءات يتلو بعضها بعضاً ، ولو كانت تحيراً واضطراباً لبطل النظام الرتيب الذي نشهده ونعيش فيه مطمئنين ، ولكان قول القائلين بالإهمـــال صادقاً معدودا ، ولكن الإهمال ــ وهو لا ياتي بالصواب ــ قد قضي عليه أن يكون غائباً مطروداً .

فلا تلقي الشمس على الأرض بقعة شمسية قادمة إلا وقد ارتفعت بقعة أخرى هاربة ، ليتحقق بالقادم والهارب دليل الحركة والحياة وحقيقة الازدواج في الكائنات ، وتتميز حدود الأمكنة وألوانها بما يحل فيها من ظل ، وما يحدث فيه من استقامة أو ميل .

وهكذا حدث في نشأة عالمنا ــ ونحن لا نقرب إلا من العـــالم القريب ــ ترتيبٌ من الظلال حيث يلقي كل كوكب منـــه ظله على الآخر ، فتتضح للنظر والعلم سباحة الأفلاك وكيفيات أشكالها ومقادير أبعادها وأحجامها ، ثم يبني العلم على ما يدركه منها ما يقدر عليه من فروع وأغصان .

ولقد اجترأ العلم ــ عند العرب والمسلمين ــ فاستعلم عن ارتفاع

الشمس من ظلال لبِنَـةٍ واحدة تتحرك حولها ، وتسلق مصعّـداً من مقاييس الظلال الصغرى إلى المقاييس الكبرى ، ثم لاح له عن يقين من مرأى الظلال التي ينشأ عنها الكسوف والخسوف أن هـذه الكواكب كرات متدحرجة في أفلاكها، وكان بلوغ العلم ـ عندنا ـ هذه المرحلة التي أوضحت أننا نسكن سطح كرة منها مثار دهشة ومُـنقلب تاريخ.

ومهما كان قول العلمـاء في الكسوف والخسوف فإن الأسباب التي يعرفها علماء هذا الشأن لا تتناقض مع أخبار الدين في إنبـاء النبي عنهما بأنهما من آيات الله ، وفي حديث آخـر ـ ذكره النسائي في مسنده ـ يقول فيه ـ حين سئل عن الكسوف ـ فقال ـ ﷺ ـ « ما تجلى الله لشيء إلا خشع له » .

وذلك أنه لم يكن هذا الذي عبر عنه النبي بالخشوع عند التجلي إلا انقهاراً من الـكائنات لضروب السلوك التي فرضت عليها ، فليس لهـا أن تخالف جريتها أو تميل عن حركتها . وهو تنبيه من النبي أيضاً على أن تقدير الخلق نِسَـباً مخصوصة بين الكواكب تحدث بسببها الآيات ، ولو بطلت تلك النسب لبطل استعدادها لقبول الأضواء والظلال .

ولقد كان تسخير القمر حول الأرض وتسخيرهما معاً حول الشمس عناية من الحكمة بتقدير أزماننا ، وكأنما هي ساعة عملاقـــة تنشأ عن دقاتها ظلال دائمة التنقل تقع على صفحتي النيرين .

أما القمر فلا تفارقه ظلال الأرض إلا حين يستدير بدراً ، وأما هو والشمس فيقع عليهما ظل الخسوف والكسوف في نظـــام رتيب

لساعة دقاقة لا يقف عقرباها ولا ينيان ، ولا يتقدمـــان بالزمن ولا يتأخران ، إشارة منهما إلى الأزمنـــة الصغرى ، ثم هي تشير بدقات الخسوف والكسوف إلى الأحداث الكبرى ، فيستقيم لأهل الأرض أن يقرأوا من ظلالها وانحرافاتهـــا مقاييس الأزمنة والفصول ، ونسب العروض والأطوال ، وأحوال الأغلفة الهوائية ، ومسارب الكواكب ومدارات الأفلاك ، في نظام لا يتغير ولا يضطرب ، ليـــدل إنشاؤه ودوامـــه على مبدع واحد دائم الحكمة والرعاية ، قائم على الخلق والتدبير .

الظل والفيء

والظل في اللغة نقيض الضحّ ، وهو ضوء شعاع الشمس دون الشعاع ، فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمـــة وليس بظل . وزاد بعضهم الأمر تفصيلاً فقال : إن الظل هو لون النهـار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وبقي أن يفرقوا بين الظل والفيء فقالوا : إن الظل هو خيـال الأشياء الهارب من أشعة الشمس من وقت شرقها إلى أن تنزلق للزوال، أما الفيء فهو خيال الأشياء نفسه الهارب من أشعتهـا في العشي بعـد الزوال ، وقد سُمي فيئاً لرجوعه بعد قدومه ونكوصه بعد إقباله .

وتصدى أعلام أهل اللغة للتفريق والتفصيل : رؤبة وابن السكيت وابن قتيبة ، فقال رؤبة : كل ما كانت عليـه الشمس فزالت فهو فيء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . وقال ابن السكيت: الظل

ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس . ووقف ابن قتيبة يؤيد هذا القول الأخير ويستنكر غيره على اللغويين ، مستدلاً بورود الإفاءة بمعنى الرجوع في قوله تعالى « حتى تفيء إلى أمر الله » .

وإذا جاوزنا هذه الشواطىء اللغوية إلى الحقائق ولجّتها رأينا الظل والفيء وصلة ما بين النور والظلمة وقنطرة العبور من أحدهما إلى ضده ، وهي وصلة فاترة خفية السرّ والسير ، وكأنها قوة النمو والنقلة في الكائن الحي لا تدرك حين تبدأ وتسير ، ثم لا تخفى حين تتم وتصير .

بل إن هناك وُصلة أخرى أتم خفاء وأدق سراً، وهي قنطرة شبه الظل التي هي بين الظل والنور ، ولكنها أقرب للضوء وأدنى إليه ، وقد تكفلت علوم الطبيعة بتوضيحها وتمثيل مواقعها .

والظل والفيء تابعان مقهوران ، يتبعان الشمس في مدى ما تبلغ إليه من علو وهبوط ، فإذا ارتفعت قصُرا وإذا انحطت طالا ، فهي دليل عليها ، ولكن لا كدلالة اتّباع السائر في المفازة لخطوات الدليل – كما قال بعض القدماء – فإنهم لم يدركوا غير طفاوة ظاهرة للألفاظ، إذ يراد بالدلالة أن تُثبت الشيء أو تبطله .

أما في الإثبات فإن الشمس تثبت الظل وإن كانا متعاكسين كل منهما يسير في اتجاه مغاير للآخر ، فهما دليلان بالتضاد لا بالاتفاق ، بينما السائر في المفازة والدليل معه يسيران على اتجاه واتفاق .

وأما في الإبطـال فإشارة القرآن بدلالة الشمس على الظل في قوله تعالى : « وجعلنا الشمس عليه دليلا » إنمـــا هي إشارة بالرابطة بين الدليل والمدلول ، وذلك حين تجيء فتذهب به ، فإذا أشرقت غرّب وإذا غربت شرّق ، فكأنها الحجـــة التي تبطل البرهان الذي ينسخه ويذهبه ، وكانت الشمس هي الدليل لأنها الحجة ، وفي الحجة يكون الضوء اللامع والنور الساطع . وذلك بيّـنه قوله تعالى : « ولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيئوا ظلاله عن اليمين والشمائل» فقد قيل : إن اليمين والشمائل هما ناحيتا المشرق والمغرب اللتان يذهب إليهما الظل قبل الزوال وبعده .

ولعل أبا علي بن الهيثم العربي والذي كان في العلماء تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات ـ حتى سموه بطليموس الثاني الحكيم ـ لعله كان أسبق العلماء الذين اهتموا بالأضواء والظلال كلِفاً بتنبيهات الاسلام على البحث والرصد ، فجعل يراقب انكسار الضوء محـاولاً أن يقيس به طبقة الهواء، ثم لاءم بين الظلال ومواقيت الصلاة المفروضة، فلاحظ أن الفجر والعشاء جعلا في الفريضة على مسافتين متساويتين من أفقي الشروق والغروب ، بينما كانت الصلوات الأخرى في قياسات مختلفة لأشكال الظلال .

ولاحظ ابن الهيثم أن الفجر يبـــدأ حينما تصبح الشمس على تسع عشرة درجة تحت أفق الشروق ، وأن الشفق يذوب ويتلاشى حينما تصير الشمس على الدرجة نفسها تحت أفق الغروب ، وكذلك ابتعدت

أوائل الفجر عن الشروق بقدر ما ابتعدت أوائل العشاء عن الغروب، وهو إدراك للسرّ كبير من خاطر وقّاد مثير .

ثم سايرت الصلوات كلها أشكال الظل : فالفجر في أوله والظهر في أضاله والعصر في مضاعفه والمغرب في آخره والعشاء حين ينقضي خبره ويغيب أثره ، وكأن الصلوات كلها نهارية لأنها تتبع مساير الظلال وتتحرى مراجع الأفياء .

وقَبْضُ الله ـ سبحانه ـ للظل إنما أريد به جمعه في إناء ولملمته في رداء ، إما بإرسال بقع الأشعة إلى أماكن الظل فتضيء، وإما بقبضه كله ورضوخه تحت كواهل الليل ، فتظلم أماكنه وتسودّ محاسنه . وكان القبض خفياً يسيراً رحمة بالأبصار أن تعشى والأحداق أن تعمى، ولكي ينفلق النور من الظلمة في لين وخفاء ، لئلا تؤدي الهجمة والفجاءة إلى ما يناقض الحكمة من خلق الأضداد وافتراق الأبعاد .

ولا ريب في أن تداول النور والظلمة للأمكنة على قنطرة من الظل وشبه الظل ، إنما هو قاعدة من الطبيعة للترتيل والترسيل، جزءاً جزءاً ، لا جملة جملة ، في تمهيد خفيّ للنقلة والتحول حتى لا تفزع القلوب ولا تضطرب العقول .

حضارة لغوية

ولما كان الظل وُصْلة بين الخفاء والظهور ، ولكنه كان أميل إلى لون الظلمة والسر ، لم تفت بلاغة القرآن هذه المشابهة أو المقاربة ، فحين عبّر بالفعل (ظل) مثقلاً ومخففاً لم يجعله قط إلا في ضد النور

أو ما يشبهه ، ثم التزم القرآن ما تجاوز عنه البلغـاء ولم يتقيدوا به كما تقيد القرآن ، فبقي القرآن وحده منفرداً في اتجاهه الذي أراده ونسق بلاغته الذي اختاره .

واستقصى القرآن بهذا الفعل معاني الاستمرار الأليم لمتـاعب البدن وحيرة العقل وذلّ النفس ، وظل القرآن يعبر به عن كل ألم حسي أو خيالي أو روحي لا يتعداه .

وكان من الأول قوله تعالى « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون » وقوله « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا » ومثله : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودا وهو كظيم » .

ومن الثاني قوله تعالى « وانظر إلى إلهك الذي ظلْـت عليه عاكفاً» وقوله « ولو نشاء جعلناه حُطامـا فظلْـتم تفكهون » وقوله « ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون »

ومن الثالث قوله تعالى « فظلت أعناقهم لها خاضعين » وقوله «إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » .

ولم يجاوز القرآن بالفعل « ظل » المخفف والمثقـل هذه المعاني قط إلى معاني استمرار أخرى تكون ضدها من راحة البـدن أو استقرار العقل أو طمأنينة النفس ، بل راح إلى ذلك الجانب يكوّن لهذا الفعل حضارة لغوية إسلامية خاصة به ، لا تبنى أركانها إلا على أحجار تشير إلى ما اسود لونه من التعب والحيرة والإذلال .

وكأني أرى بلاغة القرآن قد راعت المناسبة بين حروف اللفظ والمعاني التي لا بد أن تكون لهـا ، فإن حرف الظاء وحرف اللام المشددة فيها من القسوة ما يناسبها من الثقل ووطأة التضعيف .

وأصحاب المعاجم حين ركنوا إلى أن التعبير به إنما يدل على استمراره بالنهار دون الليل ، وأنهم لم يسمعوه دل على الاستمرار في عمل الليل إلا في الشعر ، فهو جانب قد مال بهم عن حضارة اللفظ القرآنية أو مالوا به عنها ، ولم أعرف لهم دليلاً عليه .

وأما في غير الاشتقاق فقد سموا كل خاطف السرعة ظـلاً ، من خيـال أو خاطر أو عابر من الأمن أو الخوف ، ولعل مسلمة بن عبد الملك قائد جند بني أميـة والملقب بالجرادة الصفراء كان قـد سمى فرسه ظلا ، لما عرف من سرعتها وامتناعها بهذه السرعة أن يشق لها غبار .

ثم كثر استعمال الظل في اللغة لغير هذه المسرعات ، ولغير المعنى العلمي ـ الذي تعرض له هذا المقال ـ فعبروا به عن معاني العز والمنعة والرفاهة والزئير والليل وسواده والبرد وشدته ، ثم لأشخاص الأشياء جميعها ، ثم جعلوه لأول الشباب وشدة القيظ وللكنف والحِمى ، وكل مقاربة ومداناة من شخص أو زمان أو مكان .

والظلال المعنوية المضروبة بيننا وبين الآجال والأرزاق والغيوب هي أكثف الظلال ، ولم يكن ضربها بين أعيننا ومرآهـا إلا رحمـة من الله بنا ، إذ لو كشف ما وراءها لصعقتنا الرؤى أو كربتنا الهموم .

وقد عُنِيَ أهل التصوف بالظل ، فاتخذوه دليلاً على الوجود المتخيل والذي يسرع زواله ، ليثبتوا أن الكون ليس إلا ظلاً لواجب الوجود الذي لا وجود في الحقيقة لغيره ، كالصورة في المرآة لا حقيقة لها ولا وجود لذات شخص بها ، وإنما هو الوجود الخارج عنها لا الذي بها . وجلّ الله سبحانه عن التشبيه والتمثيل !

اختلاف الجزاء

ولم تختلف القاعدة في أضواء الأعمال وظلالها ، ولكنها كانت ظلالاً موافقة لا ظلالاً مضادة ، كما هي في حياتنا هذه تضاد النور في اتجاهه . وقد أذن الله أن ينصرف تقدير أفعال العباد من حيث استحقاقها للثواب أو العقاب إلى الدار الآخرة فتكون لها أورف الظلال وأكثرها إحاطة وامتدادا .

وربما ظهرت في حياتنا الدنيا مقاييس كاذبة لظلال الأعمال ، حيث يرتمي الفساد والشقاوة على رحاب من الرخاء والراحة ، بينما يلقى الصلاح والاستقامة ظلا من الضيق والقلق ، ولكنها ظلال كاذبة لجهود وأعمال ليست فيها أضواء ، وظلالها الحقيقية كائنة في الحياة الأخرى ، حيث يتساوى الظل الحقيقي أو يزيد ، بما أرسل في العمل من ظلمات وأضواء .

وحتى لا تظل الظلال كواذب ، فقد حث القرآن على الخير وصدّ عن الشر ، ووعد بالظل ، وأوعد بالظلة ، جزاء في الدنيا والآخرة مقسوماً بين العذاب والثواب، ليكون لكل عمل جزاؤه . وربما أرخى الله على العباد ظلاً من جوده ، ابتداء بلا عمل ، وفضلاً بلا طلب .

وقد كان من ظلال النعمة في الدنيا ظلّ موسى الذي استراح إليه من التعب بعد أن سقى لابنتي شعيب ، والتظليل بالغمام على أصحابه في التيه ، وكان منها ظل الشجرة التي آوى إليها النبي تحت عين بحيرا الراهب ، وظل الشجرة الأخرى في بيعة الرضوان . ثم كانت ظلال الأزمنة والأمكنة ، نعماً على الأبدان والعقول ، منـاً من الله على عباده جميعاً حيث يقول : « والله جعل لـكم مما خلق ظلالا وجعل لـكم من الجبال أكنانا وجعل لـكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكمبأسكم » .

ثم كان من ظل العذاب في الدنيا ما ابتلى الله بني اسرائيل به يوم نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، وما ابتلى الله به أصحاب الأيكة إذ كذبوا شعيباً ، فأخذهم عذاب يوم الظلة ، ثم ما جعله الله امتحاناً دائماً لكل من يغشاهم الموج كالظلل فيدعون الله في البحر عند الهول وينسونه في البر بعد النجاة .

وكذلك كان أكثر ما يقال لفظ الظلة فيما يستوخم ويكره ، كما في قوله تعالى « كأنه ظلة ــ عذاب يوم الظلة ــ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » أي يأتيهم عذابه فيما يتخيلون فيه الخير والنعماء ، وإذا جاء العذاب من فطنة الرحمة كان أشد هولاً وأعظم تفزيعاً .

وأما في الآخرة فإن ألوان العقوبة ستمتد في ظلل من النار تحتشُّ أهل العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وذلك كما قال سبحانه « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » وكما قال « ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب » .

ولعل الشعب الثلاث هي غاية أبعاد النــــار إذا ما اضطرمت واتسعت لتغمر أجساد المعذبين ، وتحيط بهم طولاً وعرضاً وعمقاً ، وسواء أكانت من ضريع وزقوم وغسلين أو كانت لهبـــاً وشرراً ودخانـــاً ، فإن ذلك لا يناقض مقاييس الأحجام الناشئة عن الطول والعرض والعمق ، وربما أوضح ذلك قوله تعـالى « إنها ترمي بشرر كالقصر » وليس القصر إلا البناء الضخم أو الجبل الشامخ الذي تقيمه الأطوال والعروض والسموك .

وبعض ثواب الآخرة كائن في ظل يقي الحر ، أو ظل ظليل يكنى به عن غضارة العيش ، أو ظل دان أو ممدود في ربوع الجنـــة وتحت أشجارها وعلى ضفافهـــا وأرائكها وقرب عيونها وفي صحبة أزواجها .

وكل ذلك جاءت به آيات الكتاب ، حيث يقصر عن تفصيلها مثال أو كتاب ، وإن كان القول الموجز لا يضيق بتقريب ما جاءت به من بشائر ودلالات تستبين في قول الكتاب الكريم « إن المتقين في ظلال ونهر » وقوله « أكلها دائم وظلها » وقوله « هم وأزواجهم في ظلال ».

وكذلك جاء الحديث بما لا يحصى من الإشارة للظلال المضروبة في القيامة لطوائف من المطيعين ، والناشئين في الطاعة ، والمتصدقين والمكثرين من الصدقات ، يجدون ظلال صدقاتهم وأعمالهم في ظل الواحد الذي لا يبقى معه ظل لأحـــد ، انفراداً منه بالملك وامتناناً بالرحمة والجود .

ولا يكون كل ظل من الثواب في الموقف ظليلاً إلا لآحاد من الخلق ـ بعد الأنبياء والرسل ـ وهم الذين استغرقوا كل مقامات المعرفة ، وظهر ذلك في موزونات أعمالهم ومثوباتها .

أما الجنة فكلها ظلال ، ولعله لم يكن اسمها كذلك إلا لما ترخيه أشجارها وترسله نعمها من الظلال ، فتجنُّ ما تحتها وتستره ، فلا يرى أهلها فيها شمساً ولا زمهريرا « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا » .

وليس يفتح على المسلمين أبواب الجنة مثلما تفتح عليهم في قتال أعدائهم ظلال الخيام التي ينصبونها ، والسيوف التي يشهرونها ، فإن مما قاله رسول الله ﷺ قوله : « أفضل الصدقات ظل فسطاط في سبيل الله » .

وقد روى أبو موسى الأشعري عنه ـ ﷺ ـ أنه قال « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » وكان أبو موسى بحضرة العدو، فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى ، أأنت سمعت رسول الله يقول هذا ؟ قال نعم . فرجع الرجل إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام . ثم كسر جفن سيفه فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى مات شهيداً .

وكذلك تحف المكاره بظلال الجنة ، وتحفّ المطامع والشهوات بظلل النار ، وكلاهما ثابت لا يحول ، ودائم لا يزول .

* * *

إختلاف الألوان

التزام المنهج – تنبيه القرآن
ماهية اللون – التأثر والتغير
المقاصد والغايات

التزام المنهج

حين قدر لي بنعمة من الله وفضل أن أكتب عن حضارة الاسلام لم أتجاوز المنهج الذي رسمت في أن أوضح – ما اتسع لي – مدى ما بلغته حضارة هذا الدين في شكل العقيدة والعبادة وقواعد الأخلاق والسلوك ، وفي الأفكار المجملة التي تنبه العقول وتوقظها على حقائق الكون وقضايا العلم والاجتماع .

وقد تبين لي أن في الإمكان أن يتوزع نتاج هذا البحث في نهايته إلى ما يكون كالقواعد الحضارية العامة ، ثم إلى ما يكون كشفاً لأسرار الفرائض والعبادات والمراسم ، ثم إلى ما يشير في إجماله إلى بعض

حقائق الكون وأسرار العلوم ، بغية ربط ما يجمله الذين في بعض إشاراته بتفاصيل الكشوف والبحوث .

ولم يكن من منهجي أن أذهب وراء حضارة المسلمين ، لأن هـذا شيء آخر غير حضارة الاسلام ، وإن كانا ربما التقيا حيناً وافترقا حيناً آخر ، وسواء التقيا فتقدم المسلمون أو افترقا فتأخروا ، فإني لم أرد غير أن أجلو أفكار الحضارة التي جاء بها الدين وتمثلت فيما رسم من مبادىء ، وخطَّ من طرق ، وأوضح من غايات ، وفيما ألهم من نفوس وأشعل من همم وأضاء من عقول وحرر من أفكار .

وقد خيل لي أن الأفكار التي جاء بها الدين في كل أولئك لم تكن إلا كهذه النجوم والكواكب والأنظمـــة العادلة والغايات النبيلة التي نشد اليوم رحالنا إليها ولنسرع في السير والشد حتى نبلغها من قريب، فإذا بلغناها وأدركنا حقائقها وأسرارها وتمتعنا بنعمها وخيراتها ، كان اللقاء البهيج بيننا وبينها وإذا لم ندركها فإنها باقية في مداراتها ومستقراتها كواكب ونجوماً وغايات عليا لا تنطفىء إضاءتها ولا يقف سيرها ولا ينخفض علوها .

وربما كان هذا الكلام إعادة لما سبق أن أشرت إليه في تنبيه موجز عند الكلام على حركة المال في الجزء الأول من هـــذا البحث ، والذي تفضل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإصداره ، وكان منه أن قلت :

في كل ما أكتبه من حضارة الاسلام في هـذا البحث ، إنما أود أن أنبه إلى حضارة الفكر الإسلامي الأولى والتي كان من شأنها أن فتحت

طريق التطور لما ترتب عليها وتبعها من أطوار ، إذ لولا ما جاءت به أولاً من الكليات والأصول ، وما منحته للباحثين والأزمنة والأحوال من الحريات ، لما أمكن الوصول من حضارة الاسلام إلى حضارة المسلمين ، فعلى الأولى كان الأساس ، وبالثانية شيد البناء .

وأنا حين ألفت النظر إلى بقية الكلام هناك لمن أراد ، أرجو أن أنبّه إلى أنني أعيد ذلك لأؤكده ، ولئلا يغيب عن الأذهان التي يراوحها الذكر والنسيان أنني ألتزم منهجاً ليس هو منهج المؤرخ لحضارة المسلمين ، ولكن منهج الباحث وراء الأصول والقواعد التي تشعبت منها الفروع وعلت الأبنية وتحررت العقول وانطلقت الجهود .

وقد اخترت لهذا المقال أمراً نبه عليه القرآن وحده من بين الكتب السماوية ، وقد جرت وراءه بحوث الرؤية والعلم والإيمان — من المسلمين ومن غيرهم — أشواطاً طويلة ، ثم لم يزل كما هو إحدى عجائب الصنعة التي لم يدرك العلم من أسرارها إلا وشلاً قريباً. وذلك هو تنبيه القرآن على اختلاف الألوان .

تنبيه القرآن

وقد نبه القرآن على اختلاف الألوان في بضع آيات منه تشير في إجمال إلى ظهور الأشياء ومقاديرها من قريب على الأرض في تباين وتضاد عجيب .. ومن هذه الإشارات ما جاء مجملاً في قوله تعالى « وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه » غير أن بعض التفصيل جاءت به آية

« فاطر » فنبهت على الاختلاف في الأرض ذاتها وفي كل ما عليهـــا ، وذلك في قوله تعالى « ألم ترَ أن الله أنزل من السماء مـاء فاخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبـــال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » وفيما بين الإجمال والتفصيل جاءت آيات أخرى في أحوال مختلفة بذكر الألوان في الحال الذي يطلبها والنسبة التي تدعو إليها .

والقرآن بهذا التنبيه لا يوقظ أبصار الناس ولا حواسهم الدنيـا ، فإنها ترى وتلمس وتذوق ، ولا يتحدى الأذهان التي تعد وتحصي ثم تعجز لا محالة عن العد والإحصاء ، ولكنه يوقظ النفوس لارتشاف رحيق الحكمة والمعرفة من اختلاف مظاهر الكون وتعدد أشيائه ، كما ترتشف أفواه النحل رحيق الأزهار والثمرات ذات الألوان والطعوم، ثم تمجه في الخلايا عسلاً حلواً وأرْياً شهياً .

والضجة التربوية الهـائلة ــ في زماننا الذي نعيش فيه ــ بتحويل علم الطبيعة في المدارس إلى نظرة مباشرة إليها ، وتحويل علم الحساب إلى واقع عملي بمعرفة طول الشجرة من ظلها ، وتحويل كل نزهة إلى التفكير الواعي والتنقيب على كل سرّ مخبوء ــ تلك الضجة الهائلة التي تمتدح المعلمين الذين أرادوا من تلاميـذهم أن يكونوا قادرين على إضافة أشياء إلى عالمهم بما يحسون في رؤيتهم للدنيـــا ــ إنما هي ذاتها الدرس الباهر العجيب الذي أراده القرآن من قبْـل ، وهو وحده الذي نبّـه عليه من بين الكتب السماوية ، وأثار النفوس عليه .

وقد عرّف علماء المسلمين الاختلاف بأنه امتناع الشيء من أن يسدّ مسد الآخر ، فليس الأخضر أحمر ولا الطويل قصيراً ، وليس الرجل شجرة ولا العصا حجراً ، وهو ما فصله العلم من بعد ، حين كشف بعض أسرار المادة والضوء وعوامل الوراثة وأعمالها .

وإذا كان قد بدا أن تنبيه القرآن قد توجه لجميع المكلفين على طريق الاستدلال ، لمعرفة قدرة الصانع والإقرار بها ، فإن مسؤولية العلماء والباحثين – من بين المكلفين جميعاً – أعظم من مسؤولية غيرهم ممن لا يشغلهم إلا ظاهر الحياة الدنيا ، ولولا ذلك ما ختمت الآية في سورة فاطر بما سنشير إليه في نهاية هذا المقال .

ويبدو أن تعدد أشكال الموجودات وألوانها لم يكتسب قيمة إلا بالدخول في كيان الانسان وحسابه ، كما يبدو أن بقعة الكون التي تختلف عليها الأشياء تكون في نفس الإنسان أوضح وأجمل وآنس ، أما لو كانت كالرمال المتشابهة في الصحارى أو اللجج المتشاكلة في البحار أو الفضاء ، فإنها تكون متاهات موحشة تفقد قيمتها ، وربما جارت على قيمة الانسان ذاته ، ولذا فهو يحاول حين يقع في متشابه أن يجعل لأجزائه تمييزاً ومقاييس ، ليقع عنده في دوائر المختلف المعروف لا المؤتلف المجهول .

والإشارة إلى أن اختلاف الألوان والألسنة من آيات الله ، إنما هي إشارة إلى حساب النعمة العظمى في الحياة ، من حيث لا تجمل وتينْع ولا تتحرك وتموج إلا بالتفرق والاختلاف ، وهو وإن ظهر كمشكلة

تطلب الحل دائماً ، فإنما هو طبع الحياة الذي يبعث على البحث والحل، أما الاتفاق فمعناه ـ لو عم الأشياء ـ نهـــاية المشاكل التي تخلق عنصر الحياة بل فيما نسميه كله بالحياة .

وروعة اللمحة المشيرة في القرآن إلى الألوان والهيئات المذروءة في الأرض دون السماء ، كانت بالغة الدقة لأن حقائق الألوان والهيئات والمقادير لا تدركها العين ولا يقيسها الحس إلا وهي مرئية من قريب ، أما إذا ابتعدت فإن العين تضل في إدراك لونهـــا ، والحس يعيا عن قياس مقدارها ، ولذا اتجـه التنبيه إلى المختلف القريب دون البعيد ، حتى يصطحب معه الدليل ويستقر عليه اليقين .

وبصائر الناس حين تتوزع وراء أبصارهم لتدرك معجزة الخلق في الألوان والأشكال ، يروعها أن تراها متقاربة في الطبيعة الجـامدة ، حتى إذا انتقلت إلى الطبيعة التي تحيـــا وتتحرك تراها قد كثرت وتباعدت ، وتظل هكذا تكثر وتتباعد حتى تكون في الإنسان أعظم كثرة وأظهر بعداً .

ويقول جعفر بن محمد الصادق ـ والجاحظ معه ـ في علة هـــذا الاختلاف : لِمَ لا يتشابه الإنسان واحد بالآخر كما تتشابه الطير والوحش وغير ذلك ، فإنك ترى السرب من الظبـاء أو القطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر ، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة ؟

والعلة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم

وحُلاهم ، لما يجري بينهم من المعاملات ، وليس يجري بين البهائم مثل ذلك ، فيحتاج إلى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته ، ألا ترى أن المتشابه في الطير والوحش لا يضرها ذلك شيئاً ، وليس كذلك الانسان ، فإنه ربما تشابه التوأمان تشابهاً شديداً فتعظم المؤونة على الناس في معاملتهما ، حتى يعطى أحدهما مال الآخر ، ويؤخذ أحدهما بذنب الآخر ؟ وقد يحدث مثل هذا في تشابه الأسماء فضلاً عن تشابه الصور ، فمن الذي لطّف هذه الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال ، حتى وقف بها على الصواب ، إلا مَنْ وسعت حكمته كل شيء ؟!

ماهية اللون

وفي محاولة قادرة ـ بالنسبة لمفكر مقتدر ممتاز ـ استطاع جعفر ابن محمد ـ أو استطاع الجاحظ ـ أن يؤلف رسالة في الحكمة من اختلاف الألوان والأشكال ، ونسبت إلى الأول في « توحيد المفضل » ونسبت بذاتها إلى الثاني في « الدلائل والاعتبار » ومهما يكن الرجلان قد أحصيا كثيراً وغاصا على الحكم في قراراتها ، فكأنهما لم يكشفا إلا عدداً يسيراً مما يعجز عنه العدّ والإحصاء .

وحسبنا في هـذا المقال أن نميل إلى جانب واحـد من ذلك الاختلاف ، فنورد بعض ما أورده العلم عما نسميه بالألوان وأسرار صبغتها ، ومهما كان الكلام ضيقاً فإنه لا يبتعد عن الحكمة التي أرادها الكتاب الحكيم من التنبيه على الحقائق الباطنة للأشكال الظاهرة ، وما يحوي الاختلاف بينها من الخواص والمنافع التي يستفيد منها الانسان

في حياته وأطوار تقدمه وصناعاته ، كما يستوجب شكر الله على نعمه الموهوبة وآلائه الممنوحة .

وأيسر ما نعبر به عن ألوان الأضواء والمرئيات ما قالوه من أن الأضواء تجمّعات أطوال منها ، يحدث عنها اتفاق في صفحة المرئي أو اختلاف ، بحسب ما تكون عليه تلك الأطوال ، ويعنون بذلك أن كل لون إنما هو مجموعة من الموجات المتشابهة تماماً في الطول، وباختلافها تختلف الألوان ، وحسبما يكون طول الموجة الضوئية يكون الأثر على عين الانسان ، فتحس بنوع من الرؤية تميزه اللغة باسم خاص .

ويقولون إن ألوان المرئيات التي نشاهدها مختلفة في الأرض أو الثمار أو الأزهار أو أجزاء الخليقة القريبة منا ، إنما تظهر كذلك لأن كل لون يمتص في الضوء جميع الألوان التي تخالفه ما عدا لونه هو ، فإنه يظل ظاهراً في إهابه براقاً على ثيابه .

ومن غير أن نتعرض طويلاً إلى الأوائل المعروفة في علم الطيف ، فإنه يبدو أننا في حاجة أخرى لأقوال علماء الوراثة الذين يرون أن ناسلات الألوان ـ أي عاملات الوراثة فيها ـ هي التي تتولى نسج الألوان في الكائنات من النباتات وغيرها ، وهذه الناسلات تتعاون متراكمة ومتكاثرة تسكب صبغها الذي أتقنت صنعه ، وهي ملهمة به أو مأمورة .

وكأنه في ورقة من زهرة حمراء تشتغل أعداد لا حصر لها من هذه الناسلات متفقة العلم في سكب الصبغ أو الأصباغ حتى تكتسي الورقة

لوناً واحداً أو مخططاً أو مختلطـاً ، وكأنها الفتيات في مصنع النسيج ترسل كل منها وشيعتها بالسداة واللحمة من خيط مصبوغ يتألف منه مع الخيوط الأخرى لون واحد للثوب ، أو عدد من الألوان ، غير أن هؤلاء ينسجن الثوب ظاهراً جزءاً جزءاً ، أما أولئك الناسلات فهن يصنعنه كله دفعة واحدة في سر غامض وابتداع عجيب .

هذا ما يمكن أن يقال في الإشارة إلى نعمة الاختلاف في الألوان ، ميسراً مقتبساً من مقاييس العلم الدقيقة ومقالاته الصعبة ، مع أنه ليس في الظن أن العلم قد كتب في كشف سر الألوان سطره الأخير ، وما هي إلا خطة تصويرية طارئة على ذهن الانسان ، وخليق بها أن تظل موضوعاً نظرياً للفحص الدقيق .

وربما كان وصول العلم إلى أصل الخليقة وكونه من ذرة واحدة متشابهة ــ ربما كان وصوله هذا إلى الأصل أيسر من وصوله إلى سر التفرع والتكاثر عن الذرة ، وربما كان صنع الألوان من أغمض الأسرار أمام حدقة العلم ، ومن أبعدها عن يده وعينه . وهكذا تكتفي الأسرار طرداً وعكساً ، وكثيراً ما يدرك العلم سراً واحداً من بين مئات من الأسرار يتخطاها ، لأنه يعجز عنها أو يقف أمامها عاجزاً مبهوتاً ، وحينئذ تتخلخل الحقائق المكشوفة ، وتبقى حكمة الخلقة التي أشار إليها القرآن مجملة في كل روعتها وكل بهائها .

بل ربمـــا كان من أروع أسرار العلم ما دل عليه القرآن في آية « فاطر » وغيرها من أن الجواهر من جنس واحد وإن كان الدليل

عليها قد سلك طريق الرؤية الميسر لكل عين إذ أخبر سبحانه بأن الثمرات التي تختلف ألوانهـــا كما تختلف طعومها وروائحها وأشكالها كان الأثر المختلف فيها للماء الذي هو جنس واحد ، فنبه القرآن على بعض الدليل بالحس والرؤية البصرية، على انبثاق كائنات مختلفات بسبب واحد لا اختلاف فيه .

ومع أن تربة الزرع وأصول البذور وكل عوامل البيئة من عوامل الاختلاف ، فإن الماء له الأثر الأول في عملية الإحياء ، ولولاه ما نبت مختلف ولا مؤتلف ، وكأنما كانت إشارة القرآن بهذه الأولوية للمـاء الذي لو ترك الأمر لطبيعته الواحـــدة لقلب الأمر لمشيئته وأنبت المؤتلف دون المختلف ، ولكنه مع كونه واحداً فإنه ترك للمختلفات أن تظهر بأصولها وتتأثر بمواريثها .

التأثر والتغير

وفي متناثر الآيات ما يشير إلى تغير الألوان وصفحات الأجساد بما تتأثر به النفوس من داخلها وخارجها ــ ولا سيما فيما يخص الانسان ــ خضوعاً لما تفعله الجواء والأضواء والعواطف والأزمان والنعم والعقوبات.

ولم يترك الاسلام الإشارة إلى اختلاف الألوان من الجواء والأضواء، فجاء بها في عديد من الأخبار والعظات، ومن أقربها إلى الاذهان أقوال الرسول عن الأحمر والأبيض وعن الأسود والأصفر في أحاديث مختلفة الاتجاهات والمرامي ، ولكنها لا تدع الإشارة في أثنائها إلى قدرة الله وصنعته من تفرّقها واختلافها .

وربما كان من أقرب الاشارات إلى التأثر بالعقوبات ما قاله القرآن عن لباس الجوع والخوف في قوله « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » وهي إشارة إلى الألوان البادية التي تسوء رؤيتها ، وقد كان رائعاً بليغاً من الكتاب المبين أن يضيف إلى لباس الجوع والخوف لفظ الإذاقة تنبيهاً على ما يحدث بالخائف الجائع من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ، هذه الأمور التي لا تكون إلا بذهاب الأمن ونقص الغذاء . وكما جرت عادة العرب في وصف كل أمر شاق على النفس بالذوق لأنه أمرُّ في الفم طعماً ، وأمضُّ للنفس إيلاماً وتعذيباً .

وربما كان قريباً كذلك إشارة الكتاب المبين إلى حواس الوجه وتأثرها بما يلفحه ، وهو أمر توفر عليه البحث العلمي كما توفر عليه القرآن من قبل ، ذلك بالتفصيل وهذا بالإجمال : فغض البصر الذي يكون لأمر من الخارج أو من الداخل على حد سواء ، والفكرة الطارئة التي تحدث قبض الجلد أو بسطه ، أو تحدث به الخمود أو القشعريرة ، وزرقة عين المجرم من هول العقوبة ، ربما فصلها العلم تفصيلاً من عمل الأعصاب والغدد وخصائص الجلود ، وربما أجملها القرآن في مثل قوله سبحانه « أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب » وفي مثل قوله « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » وفي مثل قوله « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » وفي مثل قوله « كلما نضجت جلودهم

بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » وهي آيات تشير على الترتيب إلى تأثر حواس الوجه والانفعال بالفرح أو الحزن ، والنفير من الرعب والخوف، وتركز الإحساس في ظاهر الجلد ، حتى أصبح مكان العذاب الذي يبدله الله حتى يستمر ويدوم .

ثم أشار القرآن إلى تطور الألوان بمرور الزمن على الشيء الواحد فيغيره من حال ولون إلى حال ولون ـ ولا سيما في الأحياء ـ وذلك في مثل قوله سبحانه « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً » .

وقد أفادت الإشارة في الآية إلى أن من الحقائق والمعاني ما تتكفل الألوان بإظهاره وتبين عن أسراره ، ولعل من المراد أن ينتفع الناس بخضرة اليانع قبل أن يجف ، وبينع الأزهار قبل أن تذبل ، وبالتقاط الثمار والحب قبل أن تصير حطاماً .

وفي الآية كذلك ما يشير إلى أن مخالطة اليبس للأخضر الريان قاضية بأن يتغير لونه من الريع إلى الإصفرار ، ثم ما يلبث أن يصير عوداً يابساً سريع الإنكسار والانحطام ، وليس ذلك خاصاً بالنبات بل هو مثل مضروب لكل شيء تدب فيه الحياة من النبات وغيره ، فإنه ما يلبث بعد الخضرة والحسن والنماء أن يستطرد إلى الجفاف والقبح والتوقف ، ثم ما يلبث أن يضعف ويهرم ويموت .

وهذا التطور إنما هو حسم من الحكمـة التي جعلت الأحياء تنمو حتى تنتهي إلى مقاديرها فتقف عندها ولا تعدوها ، فلا تتضخم الأحياء عن حدودها ، ولا تحرم المواليد من حياتهـــا المقسومة لها في التدبير الحكيم ، الذي يظل في نظامه المرسوم له حتى غاية الأبد .

المقاصد والغايات

لم يكن ما جاء به الإسلام من التنبيه على اختلاف الألوان إلا أحد المساغات إلى السعي وراء كنهها وتدبر أسرارهـــا ، ولم يلق الكتاب الحكيم بمثل هذه التنبيهات لتكون أخباراً ، إذ هي أمور حـاضرة شاهدة حتى لمن لم يكن له بصر يرى .

والألوان والهيئات ، مع أنها من مباهج الدنيا ومسراتها ، فذكرها يبعث على الاهتمام بها واستقراء أحوالها مع بهجة الرؤية لها بهجة المعرفة بها والحكمة التي خلقت من أجلها ، وإنها مع ذلك لتنبه إلى دقـــائق الخلقة وما فيها من الصواب والحكمة ، مع النظام والملاءمة ، وذلك كله لا يكون عن إهمال ، لأن الإهمال لا يأتي بالصواب .

والتعارف الذي هو السبيل الوحيد للعيش والسيطرة لا يمكن إلا بمعرفة ذلك الافتنان المحير ، والذي لا سبيل إلى حصره في الألوان والأشكال ، وما لم يخلص الانسان من متاهة المتشابـه وقـع في ليل بهيم وصحراء مزملة ، لا تبين فيها واضحة على الطريق .

ولا سبيل إلى إدراك ذلك كـــله إلا بالعلم والدأب في تحصيله والإكثار من مسائله ، حتى يتسم المتعلم بصفة العالم ، فإذا صار إلى هذه الصفة كان مسئولاً قبل غيره عن أثر المعرفة فيه . وأثر المعرفـة لن يكون إلا بالانبهار من صنعة الخالق التي لا سبيل إلى حصر أعدادها ولا إلى إدراك كل أسرارها ومن لم يقف أمام هـــذه الصنعة متعجباً متحيرا فما أدرك من أمرها ولا أمر نفسه إلا جهلاً وغروراً .

وإنها لهكذا سلسلة فكرية تبتدىء برؤية العين وإدراك الحواس ، ثم تنتهي بخشية الصانع الذي أسبغ على الانسان وملكه نعماً لا تعد وآلاء لا تحصى . وبالإيمان يبتدىء المحظوظ السعيد وإليه ينتهي ، فهو الباعث على النظر والاستقراء ، ولا غاية وراء الفكر والبحث إلا زيادة الإيمان .

ولقد ختمت آية فاطر بربط خشية الله بالعلم ، على أن شروط الخشية ـ كما قال الفقهاء ـ معرفة المخشيّ والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به وبقدرته كان أكثر خشية . ولما كان رسول الله ﷺ أكثر الخلق علماً بالله فقد كان أكثرهم خشية له ، وقـد جـاء ذلك في حديثه الذي يقول « إني أخشاكم لله وأتقاكم له » .

ولا مراء في أنه لا يخاف الله حق خوفه ولا يحذر غضبه وعقابـه أكثر من العلماء الذين ينظرون في حججه وبيناته ويفكرون فيما يفضي بهم إلى معرفته والإقرار بوحدانيته والشهادة بقدرته ، أما الجهال الذين

لا يسترسلون بقلوبهم وراء ما تراه العيون ولا يحاولون إدراك الحقائق الباهرة والأسرار الحكيمـــة ، فهم أجدر أن لا تصيبهم الخشية ، إذ لا يعرفون الوحدانية ولا يرون القدرة ، مهما اختلفت أمام أبصارهم المرئيات وتباينت الهيئات .

وليس يغيب عن الخاطر أن من الخشية ما يحث العـالِم ويَزَعُـه على أن يجد في نشر مـا عرف وإذاعـة ما كشف ، ويورده على مسامع الناس وأفهامهم لتقوى به دوافع الخير وتشتد به دواعي الإيمان .

وختام آية فاطر الذي يقول «إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور» حين ذكر العلماء بالخشية استخلصهم من الناس استخلاص الحبة البطينة من بين هزيل الحب ، ولأنهم في الهيبة لقدرة الله وبديع ما خلق ، قد استجمعوا أهواءهم فيه ، وأكثروا طاعتهم له ، وأقلوا من غفلتهم عن أمره .

كما أن ختام الآية جاء يصف الله سبحانه بالعزة والغفران فكان تعليلاً لوجوب الخشية عند دلالة العلم على أنه سبحانه معاقب للمصر على طغيانه ، بصرف نظره عما يوجب الخشية ، غفور للتائب عن عصيانه، بالنظر في آياته والاقتناع بدلالاته .

وقد اتفق الأئمة : ابن مسعود وسعيد بن جبير والحسن البصري وسفيان الثوري على أن العلم هو الخشية التي تحول بينك وبين المعصية،

وترغبك في العبادة والطاعة ، وليس العلم عن كثرة الحديث والرواية ، ولكن عن الخشية وكثرتها .

وقديماً قال المسلمون

العلماء ثلاثة : عالم بالله وأمره ، وعالم بالله جاهل بأمره ، وعالم بأمر الله جاهل به . أما الأول فهو أعظم الثلاثة حظاً إذ هو من يخشى الله ويؤدي فرائضه ويحفظ حدوده . والثاني أقل منه حظاً ، إذ هو يخشاه دون علم بحدوده وفرائضه . وأما الثالث فهو أتعس الثلاثة إذ هو يعلم الحدود والفرائض ، ولكنه لا يخشى الله ، فلا تفيده البدايات دون ما تؤدي إليه من الغايات .

ويد الصانع القدير سبحانه وهي تبتدع عجائب الأمور ، وتنهج حدود الأشياء وتلائم بين متضاداتها ، وتصل بين أسباب نفوسها وتفرقها أجناساً مختلفة في الأقدار والحدود والغرائز والهيئات، تدعو إلى الإذعان لطاعته والاستجابة إلى دعوته ، دون ريث من مبطىء أو أناة من متلكىء .

وحسب الباحث المفكر أن يقرأ في هذا الباب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه صفة الطاوس ودقة ألوانه ووقوع كل لون على ريشه في مكانه ، ثم حسبه أن يقرأ في ختام وصفه له قوله :

فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن، أو تبلغه قرائح العقول،

أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين ، وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه ؟

فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاه للعيون فأدركته محدوداً مكوناً ، ومؤلفاً ملوناً ، وأعجز الألسن عن تلخيص صفتـــه وقعد بها عن تأدية نعته .

* * *

النَّوْمُ وَاليَقظَة

نعمة قهرية – حقيقة النوم
ضرب الآذان – ستار الليل
وراثة الأفذاذ – دلالة البعث
النقص والكمال

نعمة قهرية

يفد النوم على الحي قهراً ويسري إلى بدنه في بطء أو سرعة ، ثم ما يلبث أن يدهم الحي كله ويغشاه – ما لم يكن قلقاً أو خائفاً – ما عدا ما يتبقى منه لتخليط الأحلام التي تسمعها أذنه أو تتمثلها نفسه ، دون تمييز صحيح لها ، إلا ما قد جرى أو يجري في شواذ الأحلام .

وتكاد لجة الناس لا تحصي هذه النعمة السابغة أو تتفطن لحسابها ، لأنهم تعودوا أن لا يحصروا من النعم إلا ما يكون إيجاباً لا سلباً ، وعطاء لا أخذاً ، وهم لو قدروا هذه النعمة قدرها لعدوها في جليل

النعم وحسبوا وفودها عليهم عفواً وقهراً افتناناً من جانب القدرة في العطاء واسترسالاً في الجود .

ويكفي – حتى يقدر الانسان قدرها – أن يدرك أنه حين يحرم من زيارتها المتكررة له برغمه ، فإنه لا يستطيع أن يبذل جهداً ، ولا أن يشعل فكراً ، ولا أن يستقر هادىء النفس ، بل ولا يستمر نابض القلب خافق الحياة .

وربما كان في هذا الكلام على إطلاقه ظلم للإنسان ، فقد أدركت فطرته ضرورة النوم ، ومنذ ذاق النعمة السابغة به عرف لها حقها فاحتال لها ببناء البيت واصطناع الغطاء وحصنها بالعزلة والانزواء ، ليقي جسمه في أثنائها من كل عدو دقيق أو كبير .

وامتنان الله في كتابه بأن النوم من آياته كان تنبيهاً للغافل وإيقاظاً للخامد ، حتى يبحث عن سر الخلقة وفائض الرحمة ، ويدرك العقل والعلم مطامع الرزق ويحصيان فنون النعم .

ومن غير ضرورة إلى القول اللغوي باللف والنشر في قوله تعالى « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » فإنها إشارة من القرآن إلى أن راحة النوم تعادل ابتغاء الفضل ، وهما معاً يتساويان في تعديل شأن الحياة وتوفير القوى لدوامها .

وهي إشارة أيضاً إلى أن النوم والسعي للراحة والرزق قد يقعان في الزمنين بالاختيار ، فيمن يتساوى عندهم الليل والنهار أو يقربان من

التساوي . أما الذين لا يستويان عندهم ـ وهم من يسكنون طرفي الأرض عند القطبين ـ فانهم ينامون في أنهرهم وأليلهم بقدر الحاجة والاضطرار، لأن الليل والنهار يمتدان عندهم إلى شهور حين يتعاقبان ، فلم يهمل القرآن في هذه الآية حكماً عاماً للنور والظلمة وما يصنعان على الأرض من اختلاف قياسهما فيقع النوم واليقظة فيهما جميعاً .

وقد امتدت نظرة الآية وحسابها إلى عصور الكهرباء حين أضافت مدنيتها من أجزاء الليل إلى النهار ، أو ردّت الليل الداجي كله نهاراً مضيئاً ، وجعلت النوم طريداً من ضجيج الآلات والدواليب ، وألقته على عمالها قهراً وجبراً حيثما اتفق لهم في ليل أو نهار .

حقيقة النوم

ولقد جرت أفكار الناس وانبثت أضواء العلم وراء حقيقة النوم تبحث عنها وتكشف أسرارها، وجاءت في بحوثهم موافقات ومفارقات بين ما أدركه الأقدمون وأدركه المحدثون ، إذ تصور القدماء أن النوم حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ ، ورأوا علة ذلك من رطوبات الأبخرة المتصاعدة من داخل الجسم ، بحيث تتعطل منها الحواس الظاهرة وتقف فجأة عن الإحساس . ثم زادوا أن النوم الذي يكون بسكون الجرم يأتي سبباً لاستجلاب القوة إلى الأعصاب بعد الكد والإعياء .

هكذا تصور القدماء ، فلما جاء العلم الحديث رأى النوم أثراً من تهالك الخلايا العصبية وانهيار طاقتها ، فإذا نفدت طاقة الجهاز العصبي العام فنيت من الجسد كل طاقة ووقف النشاط ، وكان هذا الرأي الجديد ناتجاً عن الكشف ورؤية العين .

وفيما بين الرأيين اتفاق على أن النوم يحدث في جهاز الأعصاب ، وأحسه القدماء إحساساً في الدماغ ، ثم رآه المحدثون في الجسم كله ، وإن كان مركزه في الرأس ومجتمعه في الدماغ .

وبين النوم واليقظة رأى العلم الحديث ملايين الخلايا التي يتألف منها الجسم وتتأدّى بها الأعمال والأفكار وتحصل — وهي ساكنة خامدة — على أمداد من الطاقات التي تنقذف إليها من الغذاء والتنفس وكميات الضوء ، حتى إذا امتلأت في ساعات النوم وأوقات الراحة والاستجمام حدثت فيها الحركة وتجاوبت في كل الخلايا ، فهبّ الجسم مستيقظاً مستعداً للبذل والإنفاق في الحركة والتفكير وسائر ضروب النشاط .

غير أنه لما كان الجسم الإنساني قد خلقت خلاياه محدودة القدرة على التجميع والخزن — مهما انقذفت إليها الأمداد — وهي لا تنفق إلا مما تختزن ، فقد كانت من بديع الصنعة وفائض الرحمة أن يتوالى التخزين والإنفاق في دورات متعاقبة السرعة متكررة الحدوث لا تنقطع مع العمر والزمن ، لتقوم الحياة ويتجدد العمران .

وحقيقة النوم الذي يعتري الخلايا بالسكون الخامد لم تفت القرآن دقتها ، فعبر عن النوم بالوفـاة مرة وبالسبات أخرى في قوله « وهو الذي يتوفاكم بالليل » وقوله « وجعلنا النوم سباتا » ولم يكن ذلـك السبات أو النـوع من الموت إلا الحقيقة العلمية نفسها ، والتي كانت انقطاعاً للنائم المسبوت ، ومفارقة لحياة الأعمال والأفكار ـ ما عدا الرؤى والأحلام ـ حتى إذا أخذ القطع والمفارقة حظهما عاد النـاس في الصحوة إلى ما يفعلون ، وفي الضحوة إلى ما يجرحون .

وقديماً حـاول ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن يفرق بين قوى الجسم في النوم واليقظة تفريقاً مجملاً ، فأصاب الفكر وحقق النظر ، فرأى في ابن آدم نفْساً وروحاً ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفْس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النَّفَس والحيـاة . أما الروح بجناحيها فتتوفى عند الموت ، وأما النفْس فهي وحدها التي تتوفى في المنام .

وشعاع الشمس الذي مثل به ابن عبـاس الارتباط بين النفْس والروح هو نفسه الذي رآه العلم الحديث في ترابط أجهزة البدن كلها ترابطاً فارع القوة بالغ القياس ، ولكنه دقيق المرأى خفيّ السر ، ومهما ظهرت آثاره فهو أدق من أن يُرَى ، كشعاع الشمس يريك الأشياء وأنت لا تراه ، وتقيس به الآماد وأنت لا تدرك مداه .

ضرب الآذان

ويبدو أن حاسة السمع ربما كانت الأولى قبل حاسة الذوق ، وربما كانت معها . وقد جرت العادات القديمة بإحداث أصوات عالية بالدق جوار أُذن الوليد ، فكان اختباراً بدائياً للاطمئنان على سمعه إذا بدت منه التفاتة إليه أو تأثر به .

وكان التعبير عن النوم العميق بالضرب على الآذان إشـــارة إلى إبطال هذه الحاسة التي كانت أُولى الحواس في التنبه ، وهي آخرها أيضاً . وما لم يُضرب على أُذن النائم فإنه لن يغيب في نومه إلا بمقدار ما ضُرب عليها .

والذين قالوا في تعبير القرآن « فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا » إن هذا التعبير من فصيحات القرآن التي أقرت بالقصور عن الإتيان بمثله ، مهما قال هؤلاء ذلك فإن أمر هـــذا الضرب لا يعني ــ وحسب ــ ظاهر النسج وبلاغة القول ، ولكنه يعني كذلك المفهوم العلمي للضرب على الآذان ، بل هو أولى لأنّ به يتم الاعجاز .

وهذا المفهوم العلمي إنه إنما ضرب عليها لتمتنع كل الامتناع عن أن تسمع ، وكأن صمماً أصابها ، ولأن النائم إذا سمع انتبه ، فجعل الضرب على أذنيه سداً غليظاً يمنع نفوذ الأصوات إليهما ، لئلا يستيقظ ، فقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، كما لا يستحكم نومه إلا بتعطل سمعه وفساد آلته .

ومع ما ذهبت إليه الآيات من بيان حال أهل الكهف ، ومع ما ذهبت إليه ظنون المفسرين والمؤوّلين بأن نوم أهل الكهف كان امتحاناً أو درساً لاستيقان أهل الكهف أو غيرهم، فإن المعجزة كانت في الضرب على آذانهم ، وكأنما كلما قربت من التفطن والاستيقاظ ضرب عليها المرة بعد المرة سنين عددا ، حتى استغرقوا في نوم متصل بذلك الضرب المتكرر ، ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

وجرت المعجزة وكأنها كانت بالإبطاء في ملء خلايا أبدانهم ، إذ لا طعام يقذف إليها بقواه ، ولا دوران رحى بالحر والبرد، ولا كرور زمن بطلوع الشمس وغروبها عليهم ، بل كانت إذا طلعت تزّاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه، حتى إذا أذن الله لهم أن يقوموا قاموا .

وقياس الزمن الذي يفطن له الناس من توالي النوم واليقظة في الليل والنهار لم يكن لمن غاب عنهم الزمن أن يقيسوه ، فيستوي قصره وطوله ، وينعدم ما بينهما من فروق ، وهو أمر يجب أن يزاد في المعنى على ما أضيف إلى أن الضرب على الآذان من فصيحات القرآن .

ولم تجهل كشوف العلم اليوم صلات الأذن بالنوم واليقظة ، بل أثبتت من هذه الصلات جديداً ، إذ رأت أن بدن النائم قد يستغرق في النوم دون أن تستغرق أذنه ، فتظل متفطنة للأصوات متنبهة عليها ، وكأنما تحرسه من اللصوص وتحصّنه من الأعداء ، فاذا لم يضرب

عليها بالنوم حتى تتم الغفلة فان مدة نومــه يقصر طولها ويقرب زوالهــا .

ستار الليل

والليل الذي ينسلخ منه النهار فاذا الناس مظلمون ، هــذا الليل ذاته كان أنسب الأزمنة وأليقها للنوم، لأنه يلف ما يكسوه من الأرض بلون واحد ، أو هو طمس لا لون له ومحو لا ظهور فيه ـ وهو ذاته ما عرفه العلم عن لون السواد ـ .

وتعبير القرآن عن الطمس والمحو في قوله سبحانه « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهــار مبصرة » قالوا إن معناه طمس أثر الشيء ليخفى على الرائي حتى ولو طلع القمر فيه ، فان نوره أيضاً مطموس ، وفيه قصر عن نور الشمس مهما اتسق القمر أو استدار .

ولم يفت الفطرة أن ترى الليل يدرك الخليقة كلها بالمحو والطمس، فتصوره العربي القديم لاحقاً بكل هارب بالغاً كل المسارب ، حين رآه يطرد الشارد إلى مسكنه والوحش إلى مولجــه والطير إلى وكنته .

وكان قول الله سبحانــه « والليل وما وسق » أبلغ إشارة إلى ما يضم الليل من نشر النهار ، وما يجمع من تبديده وتفريقه ، ومهما كان

معنى الوسق حملاً أو طرداً فانه لم يفارق معنى اللحاق بالمثاوي والبلوغ إلى المخافي .

ولقد كان من شان هـــذا الجلباب الدامس الذي يكسو الخليقة ويرخي بذيله على كل ما يمر به أن يدعو إلى السكون في كل شيء أو الميل إليه ، حتى تتلاءم الأمور وتتوافق الأشكال ، ولذا كان النوم فيه أو فيما يشبهه أهدأ والراحة فيه أهنأ ، إذ تسكن بذور الخلايا حينئذ في أغلفـــة متراكبة من الهدوء ، وتغيب في أردية متكاثفة من السكون .

وأشد ما تكون حالة الانسان في البـــلاد المعتدلة إلى نوم الليل . وقد يستغنى عن نوم القيلولة الذي يدفع إليـــه الحر . ولم يجأر أحد بالشكوى من أرق يصيبه في القيلولة ، فقد يكفي فيـــه الانزواء والاسترخاء ، وإنما جأر المرضى وأصحاب الهموم بالشكوى من أرق الليل ، لأنهم يفقدون ملجأهم في مكانه ، وشفاءهم في زمانه .

ولعل القرآن حين عبر عن الليل باللباس في قوله تعـــالى « وهو الذي جعل لكم الليل لباسا » أراد بذلك أنه جعل الليل ستراً للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن ، غير أنه يُرْبي عليه بعمومه وسعته ، ليقضي الناس فيه ما يرون كتمانه ، من غير أن يكون هذا الستر مبيحاً للعيوب وارتكاب الذنوب .

وهكذا لم ير الإسلام أن يكون الليل ــ مهما ستر وأخفى ــ مبيحاً حتى لمن يتقرب إلى الله بالعبادة والصلاة فيه أن يكتفي بستر الليل العام دون ستر الثوب الخاص ، فحرم الفقهاء أن يصلي الرجل عرياناً في بيته مهما أغلق عليه بابه . ورأى الفقهاء الستر في الصلاة عبادة تختص بها . وهو إدراك لطيف وحكم دقيق ، لأن الليل مهما ستر وحجب ، فإن ستره وحجبه ليسا من صنع الانسان الذي تطالبه القربة في الدين ببذل الأدب والإحسان في الطلب .

وراثة الأفذاذ

ويرى علماء الوراثة وغيرهم أن هناك أفذاذاً من الناس يتخطون كثيراً من القواعد التي يخضع لها الأحياء ، ويرون هؤلاء الأفذاذ قد ورثوا طاقات قوية في بناء خلاياهم ، فهم يكتفون بقليل من الطعام واكتحال من النوم والراحة ، ثم هم ينفقون من هذا القليل جهوداً جبارة لا تني ولا تسأم ، وربما اكتسبت هذه القوى بالمران والتعود فيلحق المكتسبون بالموهوبين .

ومن غير ريب فإن الأنبياء في مقدمة هؤلاء الأفذاذ ، والاجتباء يصطفيهم ويرتب صفوفهم من أولي العزم ومن غيرهم ، ثم يليهم الزهاد والزعماء والأبطال ، ويكاد لا يخلو من هذه الصفوف الأخيرة شعب أو زمان .

والذين تناولهم القرآن بالسهر في الطاعة والإضناء في العبادة وعدم الفتور والكلال في القربى ، هم نفر من هؤلاء . وهو يقول فيهم : « أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً .. » ويقول : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » ويقول : « ويتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » .

وتأويل الشريف الرضي قول النبي عن نفسه «تنام عيناي ولا ينام قلبي » بأنه لا يعتقد في حال نومه من الرؤى الفاسدة والمنامات المتضادة ما يعتقد غيره من سائر البشر، فيكون في حكم المتيقظ وبمنزلة المتحفظ ــ هذا الكلام أقل بمدى كبير مما حمله قوله عليه الصلاة والسلام من معنى ، فهو وإن كان قد جاء في أمر وضوئه ذات مرة فإنه حكم عام حكم به على قلبه وسهره على بدنه ، وفيه الاشارة بالاجتباء ، وعلو قواه عن قوى الأولياء والأنبياء .

ولقد كان من احتمال النبي طاقته العالية في إنفاق الطاعة والتوجه بالشكر ومواصلة العمل في القربة ، حتى كاد يقضي ليله كله متأجج القلب من الدعاء ، متورم القدم في القيام ، تلبية لأمر ربه الذي يقول له : « ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » وبقوله : « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا » فلما أطاع ولبّى فعمل فوفى كان جزاؤه التكريم والتعظيم من الله بقوله له : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ... » .

وطبع الليل الذي يجعل كل ما ينشأ فيه من عمل أو ترحل أشق على فاعله وأصعب على مستعمله ، قد رأى فيه ذوو العزم قدرته على جمع البال وفراغ القلب ، فانسوا إلى وحشته ولم يحذروا فيه مخافة ، بل اتخذوه ستراً للجهد وغطاء للنقلة والهجرة ، وجعلوه مركب النجاة ، وموئل المناجاة .

دلالة البعث

وما ذكره الله سبحانه في قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » يوضح ما بين النوم والموت من صلة ، هي قطع الأنفس عن الأبدان فتتعلق عنها ولا يعود لها أن تتصرف فيها ، ولكن ذلك القطع يكون إما ظاهراً فقط وهو عند النوم ، وإما ظاهراً وباطناً وهو عند الموت . أما التي قضى عليها بالموت فهي لا ترد إلى البدن ، وأما التي لم يقض عليها به فترسل عند اليقظة إليه. وهو شبيه بقول ابن عباس الذي أشرنا إليه في هذا المقال من قبل .

ومهما ترددت الروح بين النوم واليقظة في الجسم زماناً قصيراً أو طويلاً ، فإن الموت لا بد لاحق بها عند الأجل المسمى ، وهو غاية الإرسال في الحياة الدنيا ، فلا إرسال بعده إلا إرسال البعث والنشور .

والبعث من نوم قصير أو من نوم طويل دليل على البعث من أي

موت أطول، ولا عبرة بالزمن ولا بانفكاك الأبدان أو بقائها بلا انفكاك. فقد أورد القرآن قصصاً للبعث تستوعب كل الصور التي تكون عليها الأجساد حين تبعث من جديد .

ضرب قصة أهل الكهف للإحيـــاء من رقاد طويل لم تبل منه الجثث ولم يتمزق التركيب ، وضرب قصة الطير التي تمزقت فيهـــا الطيور أجزاء ، وقصـة عزير التي تمزق فيهـا تعقيد التركيب كله ــ أمثلة للوعـــد الحق بالبعث ، سواء تفرقت الأبدان أو لم تتفرق ، فاستوعب القرآن بهـــا كل الصور التي يحدث فيها الاستغراب للبعث بعد الموت .

وقد شبه الله سبحانه حال الموت بحال النوم ، وحال البعث بحال الايقاظ ، وذلك في قوله سبحـــانه عن استغراب بعض المبعوثين من مراقد الموت « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » ولا يكون ذلك منهم إلا لأنهم رأوا النوم أكثر من الموت ، والاستيقاظ أكثر من الإحيـاء بعـد الموت ، والإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة مرات ، وليست كذلك حال الموت والحياة ، فلعل الاستغراب لأن الموت مرة واحدة تصيب الانسان وتمتد في الطول ، فيحسبها الناس نوماً بلا يقظة وفناء بلا رجوع .

وفلاسفة المسلمين ــ وأبو حيان منهم ــ رأوا أن النوم لو كان حالا مصمتة لا شعور لصاحبها بها من أولهـــا إلى آخرها ، لـكانت

الوحشة داخلة والشك قائماً والتهمة واقعة ، ولكنها حال يتزود الانسان منها أموراً غريبة وأحوالاً عجيبة، ويتلقف منها غيباً كثيراً ويستقبل منها عياناً ظاهراً ، فهل هذا الرمز من اليقين إلا على ثبات النفس على حال واحد لا تنام ، والنوم شبيه بالموت ؟ فاذن لا تموت لأن الموت شبيه بالنوم ، فالحالان جميعاً قد زالتا عنها وحطتا دونها .

ولكن مهما تكن هذه المحاولات في إقامة الموت مقام النوم ، فإنما هي إشارات طفيفة إذا قيست بما أوردته قصص القرآن ووعوده التي لا ريب فيها .

ويعجز العلم ــ مهما تقدم نحو الكشف والوصول إلى سر الحياة في الخلايا ــ أن يدرك سر الإحياء ، وان كان قد أشار إلى تحول المادة المتجمدة الصماء إلى طاقة متبددة . وحتى لو أمكنه أن يردّ الطاقة إلى مادة في مرتبة الجماد ، فانه سيعيا لا محالة أمام مراتب السر في الإحياء .

وليس من أمر حاسم إلا الوعد الحق الذي جاء به الأنبياء والرسل، واهتدت إليه سلائق الخير وبدائه النفوس ، وكما قال الله سبحانه فيه « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

ومرحلة البرزخ التي وعد الله بالبعث منها ، يستوي فيها الزمن بانعدامه ويستوي فيها التماسك بالتفرق . ومن قدر على نقض العادة بعادة مضادة أو معجزة لا يعجزه أن ينقض العادات كلها ويغير الخلقة

بأجمعها . وتدبير الله حسب اختباره وعلمه لا بإيجاب الطبائع واستقرار العادات . وحتى لو جرت الأمور كالعادات فإنه سبحانه يقول « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » .

النقص والكمال

ولما كانت الحاجة إلى النوم نقصاً كان النوم كذلك نقصاً ، وكان تكامل النقصين دليل الاثنينية والتصور ، بحيث لا تنتظم حياة المخلوق ولا يستقيم فكره إلا بالائتناس به والاستثقال فيه . أما الخالق سبحانه فقد تنزه عنه بل عن أوائله من سنة تسبقه أو غفلة تتقدمه ، لأنهما في المخلوق من آثار التعب وعلائم الانهيار .

وكوكبُ الأرض مخلوق كله من عيوب النوم وكمال اليقظة ، فبينما يغطي الليل نصفه بملاءة الظلام تنشر الشمس نصفه بملاءة النور ، وكأنما أراد الله جل شأنه أن لا يفارقه عيبه فحكم على من يفارقه من سكانه — في أي محاولة للصعود — أن يحمل معه سجية العيب وطبيعة النقص ، لئلا يغفل أحد في أي مكان من الكون عن صانعه أو ينساه .

ولما كانت اليقظة كمالاً فقد نسب فعلها إلى الله دون فعل الإنامة التي هي نقص وعيب . وفي سورة الروم تخطى القرآن الكريم نسبة الإنامة لله إلى الاقامة في الحياة والبعث في الآخرة دون ما بينهما من

نوم وموت ، فقال سبحانه « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » .

ولم يكن النوم نقصاً في حال الفرد وحسب ، ولكنه نقص في حال الجماعات أيضاً . فالجماعات ـ مهما قويت ـ لا تستطيع حفظ نفسها وهي نائمة إلا إذا أقامت الحراس لإيقاظها عند الغارة أو البيات. وقد انطبعت بعض أجناس الحيوان على ذلك . أما الانسان فقد كان أكثر ما يأخذه العدو بياتاً في نوم الليل أو نوم القيلولة ـ إذا لم يكن منها بد واتخذها عادة ـ وقد خص الله هذين الوقتين لأنهما وقتا دعة واستراحة وغفلة ولهو ، فمجيء العذاب فيهما أفظع وأنكى .

على أن الغفلة ـ وهي أشد من النوم غياباً وأكثر عن الحياة انقطاعاً ـ لا تنجي منها يقظة الأبدان ولا سهر الجفون ، وذلك مفهوم قوله تعالى « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ » .

وكذلك يعبر عن الغفلة بالنوم ولو كان الغافل يقظان البدن ، ولكنه نائم الفكر ساهي القلب . وقد ذكر القرآن مثلاً لهذه الغفلة بمن أقسموا على قطع جنتهم قبل أن يصبحوا دون أن يقتطعوا حق المساكين ، فأصاب جنتهم طائف الدمار وأحرقها سعير النار .

ولا ضرورة لأن يكون نوماً عن حقيقة ، لأن نقيصة النوم تدفعها اليقظة . أما نقيصة الخطيئة فلا تدفع إلا بالتوبة والعمل الصالح ،

وهما أشد من الاستيقاظ تعباً وأكثر كلفة ، لأن اليقظة تحضر البدن عفواً ، أما التوبة فلا تأتي إلا عن نية وإصرار وجهود كبار .

والغافل الذي يستيقظ إذا أوقظ ، ويتعظ إذا وعظ ، سماه الله حياً . والذي يظل على غفلته ويستغرق في جهالته سماه الله كافراً . فقابل بين الحياة والكفر ، وسوى بين الكفر والموت ، وذلك حين يقول سبحانه « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » فسمى المؤمن الذي ينتفع بالإنذار حياً لنجاته ، وسمى الكافر الذي لا يصغي إلى الزجر ميتاً لهلاكه .

وليس مرض النوم الذي يصيب طوائف وأجناساً من الأحياء في بعض الأوقات وبعض الأوطان إلا نكبة أجساد وكارثة أبدان . أما نكبة الروح التي هي أشد وأنكى فهي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . وبالله العياذ وإليه الملجأ والملاذ .

فهرس

	صفحة
المقدمة	٥
ديوان الفضائل	٧
حصائل الكلام — فضيلة العمل — الشهوة والغضب النفس الناطقة — وسائل التمييز	
السير والنظر	١٥
المشاهدة والتجريب — النظر والحساب — مسايرة القرآن — القلم والعالم — التقصير والانجاز	
نظام التأهب	٢٥
العلم التجريبي — الفكر الاسلامي — التأمل والتبصر — المرونة والأخطاء — التربية الصحيحة	

صفحة

إزدواج الكائنات ٣٧

عقد الحضارة – سبق القرآن – روح الكلمة
السلب والايجاب – رتبة الاعتدال – الواحد الأحد

منازل التأويل ٥٣

إزدواج الكائنات –طريق المناطقة– تطور التأويل
دحو الأرض – إشارات القرآن – إستقرار الصواب

الماء والحياة ٧١

مقالة القرآن – جوهر الماء –قيام الحياة– التكيف
للبقاء – الحياة والطهارة – المياه الأبدية

كنوز الجبال ٨٧

الماء والحياة – مقالات العلماء – الأشباه والنظائر
يد القدرة – مهابط الوحي – الآيات والنذر

مواقع النجوم ١٠١

رباط وثيق – اتجاه علمي – باطل النجوم
اختلاف المواقع – السماء الدنيا – العمد والتدبير

الظلال والأفياء ١١٩

تقدير الأشياء – السير الرتيب – الظل والفيء
حضارة لغوية – اختلاف الجزاء

صفحة

اختلاف الألوان ١٣٥

إلتزام المنهج – تنبيه القرآن – ماهية اللون
التأثر والتغير – المقاصد والغايات

النوم واليقظة ١٥٣

نعمة قهرية – حقيقة النوم – ضرب الآذان
ستار الليل – وراثة الأفذاذ – دلالة البعث
النقص والكمال .

للمؤلف

١ ـ النكتة المصرية	طبعة بيروت ١٩٤٨
٢ ـ يوم وليلة	« « ١٩٤٩
٣ ـ ملحمة الفالوجة	« « ١٩٤٩
٤ ـ عبدالله بن المعتز	« « ١٩٥١
٥ ـ عبقرية أبي تمام	« « ١٩٥١
٦ ـ أبو طالب	« « ١٩٥١
	« القاهرة ١٩٦١
٧ ـ عبقرية البحتري	« بيروت ١٩٥٣
٨ ـ زينب	« « ١٩٥٣
	« القاهرة ١٩٦١
٩ ـ الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز	« بيروت ١٩٥٣
١٠ ـ زين العابدين	« « ١٩٥٤
	« القاهرة ١٩٦١
١١ ـ جعفر بن محمد	« بيروت ١٩٥٤
١٢ ـ فلسفة الزكاة عند المسلمين	« « ١٩٥٦
	« القاهرة ١٩٦١
١٣ ـ أسرار العبادات في الاسلام	« بيروت ١٩٧٢
١٤ ـ شيخ الأمة أحمد بن حنبل	« بيروت ١٩٧٢